

سكوايات عالمية رويات عالمية

النوامان الفرنسيان

تأليف: فيرنر برجنجرين

ترجمة: محمود ابراهيم الدسوقي



سلسلة
روايات عالمية

تصدر عن:

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

روايات عالمية

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

نقلت إلى العربية كاملة عن
رواية

Die Zwillinge aus Frankreich
von
Werner Bergengruen

روايات عالمية

من الأدب الألماني

العدد (٥٠٧)

منتدى سور الأزليكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

التوأمان الفرنسيان

تأليف : فيرنر بيرجنجرين

ترجمة : محمود إبراهيم الدسوقي

مقدمة

الاديب الشاعر الالماني فيرنر برجنجرين علم ملحوظ من أعلام الادب الالماني الحديث . . ولد في أواخر القرن التاسع عشر في سنة ١٨٩٢ في مدينة ريجا عاصمة لتفيا الواقعة على بحر البلطيق . . وهي مدينة كبرى أهلها خليط من الالمان والبولنديين والروس . . حكمتها الكنيسة وحكمها الفرسان الالمان في القرون الوسطى . . وتعاقب على حكمها البولنديون والروس والالمان . . ثم استقلت لتفيا . . ثم احتلها الروس وباتت في سنة ١٩٤٠ جمهورية من الجمهوريات السوفيتية . فمدينة ريجا ، عاصمة لتفيا ، بهذا التوزع بين نظم الحكم ، ومختلف الثقافات والحكام ، لم تترك وليدها وابنها فيرنر برجنجرين بلا تأثير . . على أن هذا التأثير خليق أن يلفت القارئ الى انعدام تناسبه مع كاتب نشأ نشأة ألمانية ولم يكن مع ذلك متعصبا للألمان - تلقى تعليمه في ألمانيا ، ودرس القانون والعلم الطبيعية واشترك في الحرب العالمية الاولى وبات منذ سنة ١٩٢٦ كاتباً أديباً ، واعتنق المذهب الكاثوليكي في سنة ١٩٣٦ . فهو من ثم يقدس روما ، ويتأثر بها في كتاباته . . وعاش من سنة ١٩٤٦ في سويسرا .

لقد تجاوز أصله الالماني مع أصول أخرى في ريجا . . فبدلاً من أن يتنازلاً ، تحاب، وأعز ذكرياته مع المواطنين . . ووفى للتقاليد، وجانب العنصرين ، ومثل التأخي بين من عاش من الاجناس ، فهو

حين يقص عن الروس أو يقص عن البولنديين أو عن قومه الالمان لا تجد فى قصصه شبهة من التحامل على هذا أو ذاك ، أو تحيزا لهذا أو ذاك ، بل أمانة ملحوظة فى سرد الوقائع ، وتقوى وأدبا يتخللان قصصه ، لا يثير غريزة ، ولا يغلو فى سرد نقيصه ، بل يعف ويغضى عن كثير ، فى ألمعية بينة ، وطرافة أخاذة ، لا تشط عن المستوى الهادىء الباسم .

والشاعر برجنجرين بارع فى القص ، حاذق فى اللغات ، عميق التفكير ، انسان تنبع انسانيته من التقوى ، وهو لا يباعد بين تخطيط الكائنات الحية وصفائها ، وبين الذنب والمغفرة ، وبين الاغراء والنقاء ، فهو يجعل هذا مفضيا الى ذاك ، وقد أوقف شخصياته أمام القضاء ، لينحسر القنصاع عن مألوف كل يوم ، ويظهر ما خفى فى البشرية من معادن موعلة فى القدم ، ثم تصدر الاحكام . والاغراء فى رأيه هو الطريق الى النقاء ، والذنب يعد الانسان لتلقى المغفرة .

وقد عالج برجنجرين القصة الصغيرة والكبيرة أو القصيرة والطويلة ، فكان أشهر ما كتب فى الاولى « تجربة النار (حكم الله) » ، « وغفران الفصح » و « الصقور الثلاثة » و « شجرة الورد الاسبانى » وأروع ما كتب فى الثانية : « الطاغية الكبير والقضاء » و « فى السماء كما على الارض » و « الفارس الاخير » و « الفارسة » وقصائده الى ذلك قيمة .

وقد جاء فى مقدمته « للطاغية الكبير » ان القصة تتناول المغريات التى تساور الأقوياء ، والغوايات التى يقع الضعفاء والمهددون فريستها ، وأنه يحكى عنها فى القصة بصورة تنبئ بأن ايمان المرء بالكمال الانسانى يتعرض لخسارة .

وتعرض القصة كيف أن حاكم مدينة كاسانو يقلق راحة سكان المدينة الى حد كبير ، فهو يطالبهم بالكشف عن جريمة ارتكبها

هو كما ثبت فيما بعد ، لكن أجدنا لا يجرؤ أن يتعرض له ، ويقبح الكل خائفين تحت وطأة الطغيان ، فيلجئون الى الكذب والبهتان يتهمون أنفسهم وغيرهم ، ويكشفون بصورة مرعبة عن غلوهم في الشعور البشرى ، اللهم الا واحد فقط يجرؤ على الوقوف في وجه الطاغية ، وهو راعي كنيسة الناحية الدون لوكا ، اذ يتهمه بأنه يمتن كرامة الإنسان لمنفعته الخاصة وشهوة الحكم ، ويزعم لنفسه القدرة على كل شيء من دون الله .

ويبلغ أخيرا انسان بسيط برىء عن نفسه بوصفه القاتل لينقذ المدينة من سموم الشر والنميمة المتبادلين . . فسرعان ما يؤدي هذا بالطاغية الى بدء حياة جديدة واقامة دولة جديدة بالاتفاق مع رعاياه، تسودها فضائل الحياة .

كذلك في قصة «فى السماء كما على الارض» يجيب برجنجرين على السؤال : كيف يكون رد فعل الخطر والتهديد على الناس فى أوقات الكوارث ؟ ويبدى فى ذلك قابليتهم للتوبة . . وفى القرن السادس عشر يهدد طوفان مدينتى برلين وكولونيا ، فيندفع السكان فى رعبهم المخيف الى أعمال تنافى الضمير . . وتهزهم الكارثة المهددة من الاعماق ، فيظهر ماله قيمة ، وما هو عديم القيمة : ما كان من ذهب حر خافيا فى الاعماق قد خلص من الشوائب فى عملية طويلة أليمة، وما نفى من دنس فكدر وجه الصورة كله ، وهكذا يوصد برجنجرين الهوة القائمة بين السماء والارض باستعداد أصيل لتقبل المصير وتنقية ما يلوث الانسان .

وننهي مجموعة القصص التى قمنا بترجمتها ، بكلمة ختام لكاتب ألماني من كتاب الفصول وشاعر غنائى من شعراء الغزل اسمه رينهولد شتايدر . . لقد دخل تاريخ الادب الالماني والادب العالمى على السواء ، وعاش من سنة ١٩٠٣ الى ١٩٥٨ . ومات فى

عندما كنت صغيرة ما أزال أعيش في بيت أبي الذي لم يكن كما
تبديه الصورة الكبيرة المعلقة في قاعة طعامكم ، بل كان أكثر تحمسا
لنفسه هو وأقل اكتراثا لما يتصل بمسلكه حيال الآخرين . وقد كان
الكثير في ذلك الحين يختلف عما هو اليوم . لكن لا بد أن تكوني
قد سمعت بالتغيرات التي ألمت منذ ذلك العهد بمدينةنتنا وبالعالم على
الاطلاق . كذلك من المؤكد أنه قد تردد مرة في بيت والديك أو في
مكان آخر أن النية كانت معقودة على بناء برج جديد لكنيسة
الرسول يهوذا تاديوس . فقد أسهم اذ ذاك في مثل هذه الخطط
كل واحد ، حتى صغار الناس فعلوا ذلك ، وبالأولى نحن الذين كنا
نضطلع بمجد مدينةنتنا وننشد أن نعليه فوق أمجاد المدن الأخرى في
شبه جزيرتنا .

وانه لمن الغريب أن مدينةنتنا أنجبت كثيرين من الرجال
الفخوريين ذوى المواهب ، تجارا ومحاربين وجوابى بحار ومؤرخين
وعلماء ، كما أنجبت أيضا قديسا عاش قبل عدة مئات من السنين؛
لكنها لم تنجب فنانيين على ما كنا عليه من تقدير للفن . وهكذا كنا
مضطرين الى أن نستقدم من الخارج من نحتاج اليهم من الفنانين .

وكان جانلوكا بلتراندى ما يزال صغيرا ، لكن صيته كان قد
أخذ يذيع ، وكان قمينا أن يبلغ النجوم بمحو كل ما عدا اسمه من
الاسماء في وطننا ، لو أنه قدر له أن يعيش أطول مما عاش . وقد
تنازع عليه كثير من المدن والأمراء والعظماء وزايدناهم فيه فزدنا
عليهم في ثمنه ، لأنه في ذلك الوقت وقبل أن ينشعب الكثير من
الحروب ويقع المزيد من السلب والنهب وقبل أن تتغلب علينا منافسة
المدن الأخرى لنا - في ذلك الوقت كان يسود مدينةنتنا أعظم ثراء
شهدته في يوم من الايام .

وهكذا جاءنا جانلوكا بلتراندى ليبنى البرج الجديد لكنيسة
القديس يهوذا تاديوس . لكن كان عليه أن يقوم الى جانب ذلك

بطائفة من الاعمال الاخرى : أبنية وتماثيل ورسوما على الجدران ،
وصورا للهيكل ، ذلك أنه لم يكن مألوفاً إذ ذاك أن يزاوِلَ فنان فناً
واحداً بل كان يجب على الأصح لمن يحرص على شهرته أن يعمل في
كافة فروع الفن التشكيلي ؛ فكان هناك رجال يضعون التصميمات
لتشييد الحصون ويلعبون بفنون صنع المواقع وآلات الحرب وينظمون
الشعر ويحيلونه الى موسيقا . لكن أهم ما كان يهمننا هو برج
كنيسة الرسول يهوذا تاديوس ، حتى لا يكون له مثيل في شبه
الجزيرة بأسرها .

اذن فقد جاء جانلوكا اليينا وشغل أفكار الكثيرين جداً من
الناس ، ولم تمل النساء والفتيات خاصة من التحدث عنه ، لكن
في رأيي أنهن بالغن في هذا . ولما كانت قد مضت عليه فترة طويلة
في المدينة فقد أراني الناس اياه في الشارع فوجدته حسن البنية
حسن الهندام ، وراعني ما شهدت في نظراته من نار متأججة ، لكنه
كان في رأيي مع ذلك شاباً لم يصنع من مادة غير التي صنع منها
شبان مدينتنا .

ومضت بضعة أشهر فقال لي أبي انه يرغب في أن يرسم لي
جانلوكا صورة ، وأن جانلوكا أبدى استعداداً لذلك وانه أيضاً يريد
أن يبدأ عمله عما قريب ، قال أبي : وهذا شرف لبيتنا وفيه مسرة
لنا ، ذلك أنه معروف طبعاً كيف يلاحقه العظماء جميعاً وأية عروض
عالية تعرض عليه ، وهنا شكرت أبي وكنت فخورة بأن تصل صورتى
الى الذرية ، وانتظرت بفارغ الصبر مقدم جانلوكا الذى أبطأ برهة
أخرى ، وكنت ما أزال أتصور فيما يتصل به وبصفاته أنه لا يختلف
عن غيره كثيراً ، وكنت أقول لنفسى انه ليس من اللائق أن يكون لي
الآراء نفسها التى تراها بقية الشابات والنساء فى المدينة . بيد أنى
لما دعيت بعدئذ الى الغرفة التى كان جالسا فيها مع أبي - ذلك أن
أمى كانت إذ ذاك قد توفيت الى رحمة الله - ومددت اليه يدي ،

وأسئلته التي يلقيها بين ما أرويه ، ونظراته وهيئته . وأحب أن أقول انى قضيت هذا الوقت كانى مسحورة وانى لم أتمن شيئا مثل أن يدوم هذا الى الابد .

وازدادت الالفة بيننا من أحاديثنا . لكنه فى الوقت نفسه بدأ يبدو لى أنه تغير بصورة غريبة . فقد كان آنئذ كثيرا ما يشرذ فكره، وكان يسير قدما فى عمله ويلزم الصمت أحيانا طويلة وينظر الى بصورة لم أعرف معها ما ينبغى أن أفعله وقد ألفت حقا أن يركز على نظرات ثابتة نافذة جدا ، والا كيف كان ينبغى أن يرسمنى بخلاف ذلك ؟ لكن نظراته كانت من نوع آخر ، فكان قلبى يترنح بين الهناء والقلق ، وكان يحدث أيضا أن يكف عن الكلام ويضع الفرشاة أو يلقي بها من يده ثم يشب ويخطو فى الغرفة مسرعا غاديا رائحا كمن يريد أن يتمالك نفسه بالقوة ، لكنه كان يتعذر عليه ذلك فيما بدا له ، فينظر الى برهة محملا ثم يستأذن فى الانصراف على غير توقع .

لقد سبق أن قلت ان المدينة كانت تتحدث كثيرا عن جانلوكا واذا كان يرسمنى كان الكثيرون يحسدوننى على ذلك كما لو كان فيه تمييز لى فقد كثر ما تحدثوا الى عنه وأرادوا أن يعرفوا الكثير منى .

واستبنت من مثل هذه الاحاديث أن التغيير الذى تبينته فى كيانه قد لاحظته أيضا غيرى من الناس . قالوا انه طرأ على أعماله جميعا توقف وانه ينبذ خططه جميعا ولا يستطيع التصميم على خطط جديدة . ولا يعلم أحد ماذا يكون مآل البرج وبنائه . وسألنى أحدهم ألسنت أرى أنه يمكن أن يكون مصابا بمرض ما ؟ ففزعت وتولانى هم كثير .

وأخيرا تشجعت وسألته عن سبب تغيره . هنا أجابنى بصوت فيه خشونة انه يمكن أن يقال بلا ريب انه فريسة مرض . فشعرت بقلبي يدق دقا عنيفا ، وتأملت وجهه الشاحب والخوف يحدونى ، ونظرت الى عينيه اللتين كانتا تتقدان كمن ألمت به الحمى .

واستطرد يقول : أجل ان به شيئا يشبه التسمم سرى فى
كيانه كله ، وانه يسعنى وحدى أن أنجيه من هذا السم .

ولما قال هذا ارتعشت يداه وأحسست الرعدة تسرى فى أنا
أيضا . وجعلت أفكر لحظة لعله يريدنى زوجة . لكنه خطر ببالي فى
الحال أن له فى وطنه زوجة لا يعيش معها فى وفاق ، وهو نفسه
لم يحدثنى عن ذلك قط .

ولدت بالصمت ، لكنه جعل آنثذ يتكلم ، ففاتحنى بأنه يستبد
به هوى لى وأنه يشعر بأنه لا يستطيع السيطرة عليه ، وأن هذا
الهوى يخضع حياته بأسرها له ، ولا يسمح له بتركيز أفكاره على
شئ غيره ، فلا هو فى مكنته أن يرسم ، ولا هو قادر على أن يفكر فى
أعمال بناء البرج أو يؤدي لها شيئا .

فلما نطق بهذا لزممت الصمت ، وألقى نظرة على السجادة ،
وكانت قد باتت اليوم رثة معلقة على حائط القاعة السفلى على الجانب
المعرض للضوء ، كانت فى ذلك العهد ما تزال جديدة وما يزال
لزهرات السوسن الذهبية المعقودة فى أرضيتها الزرقاء بهاؤها
الاول ، ومن ذلك الحين لم يسعنى أن أراه ثانية من دون أن تتجدد
ذكرى هذه الساعة .

وأخيرا رفع وجهه ثانية لكنه كان مغمض العينين فقال لى وهو
على هذه الحال انه لا يمكن أن يشفيه غير أن أكون مستعدة لأن أقضى
معه ولو ليلة واحدة . ولم أعد أعلم أية كلمات اختارها للتعبير عن
هذا ، فانه لم يقلها على نحو غير مهذب بل قالها حقا فى وضوح
لم أسىء فهمه ، ثم زاد عليها قوله انى اذا لم أوافق فلن يستطيع
الامل فى استرداد حرية التصرف فى تفكيره وفى قواه ولكليهما أثره
فى فنه ولا غنى له عنه فى أداء أعماله . فلا صورتى ولا بناء البرج
سوف يستطيع انهاءه والفراغ منه ولا أى شئ من كل ما أخذه على

عاقبه وقدر له أن يزین مدينتنا ويزيد في شرفها • وبعد أن نطق بهذا انطلق الى الخارج •

وفي ضحی اليوم التالى ظهر جانلوکا وسالنى أى جواب أعددت له لكنه كان آنئذ في حالة تختلف عن حالته بالامس ، هبى أنه كان ثابتا مصمما كإنسان يمضى الى هدف وجيد وقف عليه الفصل في مصيره •

أما أنا فكنت في حالة من الاضطراب لم يسعنى معها أن أجيبه بشئ ، ومن ثم جعلت أتذرع بكل ما أتهرب به وأخفف به عنه • وهو ما لم أستطع معه أن أخفى عنه بلا ريب عطفًا عليه آثاره في منظر عذابه •

واستمع الى هذا برهة لكنه قاطعنى بعدها وقال لى انه يمهلى ثلاثة أيام ، فاذا لم أعلن اليه موافقتى فانه يقسم بأنه سيبارح المدينة في اليوم نفسه ولن يطأها ثانية أبدا • ولن يهمله ما ينشأ عن هذا النقض للاتفاق الذى عقده مع المدينة • وبهذا خرج من الحجرة ومن بيتنا •

ولا أريد أن أحاول أن أصف لك كيف قضيت هذه الأيام التالية واليوم السابق لها منذ أن فاتحنى بأمره أول مرة ، هذا الى أنى لم أعد أذكر شيئًا واضحًا عن تفاصيل ذلك الوقت كما لا تعى ذاكرتنا تفاصيل شئ حدث أثناء مرضى بالحمى •

كان يسود طبقتنا اذ ذاك أسلوب صريح في التعبير وانطلاق من قيد العادات لم تعودوا يا أهل اليوم تعرفونها ، والا ما كان ممكنا أن يخاطبني جانلوکا على هذا النحو أو أن أصغى اليه ، ولا يسعنى أيضا أن أقول انى غضبت منه ، فقد راقبت التغيير الذى ألم به من بدايته فعرفت أنه لم يدل بمبالغات فارغة كالتى تصدر عن الرجال حين يريدون تنفيذ رغبات لهم ، وقد أشعرتنى بالدوار فكرة أنى كنت

سبب هذا كله ، فلم يشتهنى رجل فحسب بل ان هذا الرجل كان له أن يتحكم فى ارادتى وأن يفصل فيها الى حد كبير . كان الرجاء الذى تعلقت به أفكار الكثيرات من النساء وحطت عنده رغباتهن ، لكنه لم يعبأ بهن ولا حقنى أنا وحدى بطلبه كله ، وعانى من جراء هذا الطلب ، ثم كان الرجل الذى أحبيته .

ودارت الايام كما تدور فى النهاية أيام حياتنا جميعا ، ولم أذق فى ليالى طعم النوم الا قليلا ، وكانت الليلة الاخيرة سهادا كاملا ، ثم حلت اللحظة التى دخل على فيها جانلوكا .

وسألنى أى قرار اتخذت ، فلم أعد أن هزرت رأسى ، لان الكلام لم يكن باستطاعتى . لكن جانلوكا تحول عنى بسرعة وخرج ، وعند الباب خيل الى أنه يريد أن يلتفت مرة أخرى لسكنه لم يفعل ، ولم أره بعد ذلك ثانية .

وفى اليوم التالى ذاع الخبر بأنه بارح المدينة دون أن يودع أحدا . وفى اليوم بعد التالى علمت أنه لم يعد على قيد الحياة . ذلك أن الألوان كان أوان عواصف الخريف الكبرى فلو لم يعرض مالا كثيرا ما وجد ملاحا يرضى بالخروج به فى سفينته ، ثم تحطمت السفينة وفقد جانلوكا حياته .

ووقعت المدينة آنئذ فى حيرة شديدة ، وراجت الشائعات الكثيرة ، لكن أحدا لم يصب كبد الحقيقة وهى أنى كنت السبب لفراره وكنت سبب موته .

وتقدم بعد ذلك كثير من الرجال يخطبوننى ، وطنيون وأجانب، وكان من بينهم أجلاء عظماء . لكنى كنت أفكر دائما بعد الذى حدث: هل يجب أن يكون محالا أن يملكنى أحد هؤلاء ، وأن أمنحه ماحبسته عن جانلوكا ؟ وجهد أبى واخوتى وغيرهم من أقربائى أمدا فى حمل على الزواج من هذا أو ذاك من الخطاب . لكنى لما أعلنت اليهم فى

النهاية أنى أريد الذهاب الى الدير وأنى أريد أن أبقى ما يخصنى من ميراث فى الاسرة ارتاحوا الى هذا القرار ، وكان ديرنا مزودا من قديم بالهبات السخية بحيث لم يكن يجبى من بنات الأسر اللواتى أقيم الدير لهن الا رسم ضئيل للدخول .

ومضى وقت طويل ، وأنا لا أجد فى نفسى رغبة فى رؤية الصورة التى لم تتم ، ومن ثم أمرت بطيها وإبعادها ، ومع ذلك فقد اتجهت اليها بالكثير من أفكارى ، فقد كانت الشئ الوحيد الذى بقى لى من جانلوكا ، بعد ذلك كنت أتأملها أحيانا فتبدو لى غريبة وأعجب من أن لى بهذه الصورة صلة ، فلما انتقلت بعدئذ الى هنا لم أحملها معى ، ولا بد أن تكون موضوعة فى مكان ما للمهمات فى بيتنا ، وقد تقع مرة تحت يديك ، وقد تكون الفئران قد التهمت شاشها من أمد .

ستسأليننى الآن عن السبب فى رفضى لجانلوكا . لكنى هنا لا بد أن أجيبك : حقا اننى لا أستطيع أن أذكره لك ، لأنى لا أعرفه ولم أعرفه أيضا فى ذلك الوقت ، وقد فكرت كثيرا فى ذلك فيما مر من السنين . واذ كنت لم أستطع أن أتبين سبب تصرفى فلست أعرف أيضا : هل أصبت أو أخطأت التصرف ؟ .

لقد كنت خليقة فى تلك الحرية الكبيرة التى اكتنفت آدابنا والتى حدثتك من قبل عنها أن أجيب جانلوكا الى ما يشتهيهِ دون أن يعلم أحد بذلك ، ودون أن يثير هذا ضجة أو يطلق قيلا وقالا ، فهنا اذن لم يكن شئ يمنعنى من الرضوخ لرغباته التى كانت أيضا رغباتى ، وكذلك لم يكن فى وصايا الكنيسة عائق لى ، والعالم اليوم يختلف بلا ريب ، لكنك لن تفشى كلامى اذا قلت لك ان الطبقة الدنيا من الشعب فى ذلك الوقت هى التى كانت تؤمن بالعقيدة الكنسية ، أما نحن الآخرون فكنا نصلى لآلهة الاقدمين ونقدم لها القرابين .

ثم كانت ماتزال هناك اعتبارات أخرى . وهى أنى كنت أعرف

حقا أية نتائج سوف تترتب على رفضي ، ذلك أننى لم أشك لحظة فى أن جانلوكا سيبر بقسمه ، كنت أعرف أنه ما على الا أن أسلم نفسى اليه فتبقى شهرة مدينتنا قائمة الى الأبد ، اذ يكون جانلوكا قد شيد لها البرج وزينها بأبنية وتمائيل وصور أخرى يظل الناس قرونا يحجون إلينا من أجلها . كل هذا كان حقيقة أن يحدث ، هذا الى مجد آخر لن يرتفع صوته ولن ينفذ الى الخارج كنت سأكسبه وأظل أملكه الى آخر نسمة من حياتى ، يخلع سناء عليها بأكملها . وأرى أن ههنا حالة لا تناسب فيها وقد تبينتها اذ ذاك . هى : ماذا تكون عفتى بالنسبة الى خلود للمجد الذى كان سيصيب مدينتنا من اتمام بناء البرج وأداء كل الاعمال الفنية الاخرى ؟ لقد كنت خليقة أن يكون لى نصيب بوصفى ابنة من بنات تلك الاسر التى حكمت المدينة وكانت مسئولة عنها أمام الآلهة ، وقد كنت أحب مدينة آبائى حقا كما كنا جميعا نحبها نحن الذين نرتبط بشرفها القديم والذين لم يتردد أحد منا - رجلا كان أو امرأة - فى بذل حياته فى سبيل شرفها ورفع اسمها ، لان مجدها فى الوقت نفسه هو مجدنا ، فكيف حدث أننى لم أستطع أن أضحي بعفتى ؟! ما الذى منعنى من ذلك ؟

هل يقع الذنب على أو لا يقع فى أن جانلوكا غرق فى عنفوان شبابه ؟ وأن كل ما كان ينبغى أن يخلقه بقى بلا خلق ؟ لقد طالما تحدثنا فى ذلك الحين عن القدر وعن الضرورة .

واستقدم آخر ليشيد البرج فكان بناء مضجرا دميما لم يلبث أن انهار . فهو يقوم الآن قومة بقيت حياتى بأسرها مثلها . وبتنا لا نرى فى العادة عندنا سوى أشياء عادية لا يقصد إلينا سائح من أجلها .

وصمتت العجوز ، فلعل طول القصة قد أنهكها . واغمضت عينيها برهة فلما فتحتها ثانية تطلعت مرة أخرى من خلال النافذة

الى أبراج المدينة وأطلت على البحر بأشرعته المختلفة الالوان • وكان
لعينيها الحادثين تعبير مبهم ضائع •

أما مينوشيا التي كثيرا ما احمر وجهها أثناء الحكاية فقد أبدت
مشاطرتها لما قص عليها في بضع جمل عادت بعدها الى شأنها ،
وسألت : كيف ينبغي أن يكون مسلكها في رأى العجوز ؟ وأعادت
مينوشيا سؤالها فأدارت العجوز رأسها كمن يستيقظ فجأة ، ونظرت
الى الفتاة متعجبة • وأخيرا بعد السؤال الثالث أجابت أن على مينوشيا
نفسها أن تفصل في أمرها كما ترى لأنها هي لم تعد اليوم تسدى
النصائح الى العالم •

صورة الكرنفال

«Das Karnevalsbild»

أسماء الشخصيات :

Gianandrea Raspanti

Monna Onesta

Alardo Volognana

Ranuccio

جاناندرى راسپنتى

مونا أونستا

الاردو فولونيا

رانشيرو

فى بداية الكرنفال عقب عيد القديس يوحنا ذى الفم الذهبى
بقليل ذاع فى مدينة تريكرس خبر بأن الدوق أقال أثره وأكبر
مستشاريه جاناندريا راسبنتى فجأة من جميع مناصبه وجرده من
كافة أمواله ، لكن أحدا لم يعرف لآى سبب حل بالسيد راسبنتى
مثل هذا الغضب ، ولم يكن من عادة الدوق كذلك أن يبدى لرعاياه
أسبابا لما يتخذ من قرارات أو يصدر من أحكام .

وراح الشعب يتخبط فى تخمينات كان كثيرها لا يخرج عن
كل ما يلفت النظر ويشير العجب . . لكن الواقع أن الكثير لم يتناول
عملا ما لأثير الدوق . محمدا تحديدا دقيقا ، أدى الى سقوطه فلم يذكر
ما هو ، وعلى كل فقد كان الأثير على أعظم جانب من السلطان لا يآبه
بشئ على الإطلاق فى سبيل مزاولة سلطته والاستمتاع بها . وقد
خلق له هذا أعداء لا يقلون بين الشرفاء عنهم بين أولئك الذين كانوا
يحسدونه على سلطته وعلى ثروته التى حصلها بسرعة ويؤثرون أن يحلوا
هم أنفسهم أو يحل أحد قريب منهم محله ، وقد ذكر معظمهم على
التعيين كسبب لسقوطه وكخلف له فى الوقت نفسه على مناصبه فى
الدولة خصمه الآردو فولونيا الذى كان يعد رئيسا لأحد أحزاب
المدينة يعيش فى بيت أمه اذ هو ما يزال رجلا عزبا فى مقتبل العمر

وكان جاناندريا راسبنتى محبوبا بين بسطاء الناس الذين لم
يكونوا بعد يطمعون فى أن تكون لهم دراية بشئون الدولة ، وكان
سخاؤه سخاء مبذر سريع الى التبذير ، وحبه للفخفة يدعو الى الانفاق

على رجال الحرف • ولعل التوصيات المجزية ستصبح من الآن فصاعدا
أندر ، والهبات المغدقة فى الأعياد أقل • ولعل بعض المتسولين
سيطرقون من الآن أبوابا تظل موصدة فى وجوههم • وقد أسف
الكثيرون أيضا لزوجة راسبنتى مونا أونستا التى تنتمى لى أسرة
نبيلة لكنها رقيقة الحال ، من مدينة سيمانير المجاورة • وقد أكد الناس
بعد الحادث بيومين فى المحانات والمتاجر والبيوت أن راسبنتى خنق
فى السجن بأمر الدوق •

ولم يشأ البعض أن يصدق هذا • لكنه فى صباح اليوم التالى
بالفعل اقنعت المعاينة على نحو غير مألوف كل من كان يداخله الشك
أن راسبنتى لم يعد على قيد الحياة • ومع ذلك فقد بدا لأول وهلة
أن هذه المعاينة تثبت العكس • ذلك أن من كان يقترب عند الفجر
من كنيسة الاطفال الابرياء كان يرى راسبنتى فى ردائه المخملى الأسود
الذى كان يحب ارتدائه ، لكن من دون زركشته المعهودة ، جالسا
الى اليسار على مقعد بجانب باب الكنيسة مستندا الى عامود ، مطرقا
برأسه المكشوف كأنما غلبه النعاس فى هذا المكان وعلى هذا الوضع ،
فيلفت نظره أنه يمسك نى يديه المستقرتين فى حجره بشئ زاهى
اللون فاذا ما ازداد المرء دنوا منه تبين فى هذا الشئ صحيفة خشبية
صغيرة كالتى اعتاد الدراويش حملها فى جولاتهم طلبا للاحسان
والصدقة ، لكنه كانت فوق رأسه لوحة مثبتة على العامود ، عليها
كتابة لم يمكن مع ضوء الصباح المتفتح فى بطن أن يفك رموزها
أول من اقتربوا منها ووقفوا عندها مبهوتين •

وتزايد عدد هؤلاء المقتربين والواقفين بسرعة ، وكانوا أناسا
أرادوا التوجه الى أعمالهم أو أداء صلاة الصبح ، بل أيضا أناسا
كانوا عائدين من المراقص راجعين من موائد الشراب ، آيبن من
المغامرات الغرامية ، وكان كثيرهم ما يزال فى ثيابه التنكرية يضع

ما يجب أن تذهب اليه مشاعرهم هم ، أو ما ينبغي أن يوضع لها من حد . ذلك أنه في مثل هذه الحالات يتوق الناس الى مشاركة في الشعور وفي الحكم .

لكن مفعول ما ارتفع به صوت القارئ على الحاضرين لم يكن واحدا . فقد حدث أول ما حدث أن ساد الصمت بضع لحظات ولم يسمع سوى صوت القارئ الراضى عن نفسه ، ثم بدأ التهامس ثم ارتفعت آنثذ صيحات أيضا تنم عن السخط ، بيد أن الخوف من الدوق كان عظيما ، ومن شعر بأن احساساته قد جرحت ما كان ليجرؤ على التعبير عن غضب بشيء مبين ، وعلى كل فقد أوتى الشجاعة بعض من يحملون القناع ، لكن كلا منهم كان يشعر حقا بهمة في هذا السقوط الى حضيض مرعب لا يسبر له غور ، ومن كان لا يزال طعم الخمر في فمه وقد أتى رأسا بعد لهو ، ومن كان عندئذ ما يزال على شفثيه لحن أو فكاهة وفي أذنيه موسيقا رقص أو رقة مهموسة ، فقد شعر بغتة بما بين الحياة والعدم والبهجة والهاوية من قرب وثيق وألقت في الصفحة امرأة زرية الهيئة كانت في طريقها الى صلاة الصبح قطعة من النقود بوصفها أول فاعل للخير . وكانت عملة نحاسية من أبخس نوع متداول ، وجارها مترددين بعض آخر . وجعل بعض العجائز من الشعب يتمتمن مسبحات على وتيرة واحدة .

وانحنى أحدهم فوق الميت . وكان يمكن أن يظهر عليه أنه يريد أمرا معه في صورة خاصة . ولعله كان بدافع من الفضول فحسب يتحرى الطريقة التي شد بها وثاق الجثة الى المقعد والعمود ، ولم يكن يفعل ، فقد ظهر جندي لم يكن الى ذلك الحين ميسورا أن يرى خلف الاعمدة ، ففهم الجميع أنه أقيم حارسا لا ليحرس ما يسيل من نقود بقدر ما يتدخل اذا حاول أصدقاء للقتيل أن يبتعدوا بالجثة ويضعوا حدا لهذه المهانة . لكن الامر لم يكن بحاجة الى هذا الاحتياط ، والا

فمن ذا الذى كان قمينا أن يأمن أن يناوىء الدوق على هذه الصورة العلنية ؟

من الآن لم يجرؤ سوى متنكرين تقريبا على اللقاء شىء من النقود فى الصحافة . أما من عداهم فتهيّبوا أن يستراب بميلهم الى القتل ذلك أنهم تصوروا أن فى مكنة الجندى ملاحظة المتبرعين والتبليغ عنهم - ولم تكن تريكرس مزدحمة بالسكان . وكان كل من فيها يعرف الآخر - وقد يكون الجندى مكلفا بذلك ، وقد يكون قائما بهذا من تلقاء نفسه فيرفع الامر الى الدوق أو الى رؤسائه المباشرين وكذلك افترض الناس أن يكون بين الجمهور متنكرون من خلاء البلاط .

وارتد الناس قليلا قليلا وبارحوا المكان ، وتسار البعض مع البعض خلال رحيلهم وانتقلوا فى آخر الامر من التهامس الى تصريحات أعلى وأجلى بابتعادهم من الميدان الكائن أمام الكنيسة ثم حل محل المنصرفين آخرون . بل ان أناسا جددا لم ينفكوا يتدفقون لأن الشائعة انتشرت فى تلك الاثناء ، وبين من لا يحصون ممن توافدوا من الآن فصاعدا كان من جاءوا اتفاقا لا يزيدون عن عدد قليل ، وقد حضر معظم من حضروا ليشهدوا المنظر غير المألوف ، وليقتنعوا بأن الحدث الجلل الذى روى لهم حقيقة واقعة ، وقد أدرك الجميع أهمية المکتوب على اللوحة .

وطلع النهار فى تلك الاثناء لكن السحب كانت تخيم وغبش الفجر لا يبدو انه انقشع الا قليلا ، وفى هذه الحالة التى كان عليها الضوء تبين الناس قامة امرأة نحيفة تضع قناعا أسود مقبلة فى بطء دون أن تلتفت يمنة أو يسرة ، آتية من ناحية حى المدينة المسمى سان مارسيللو ، وان ارتدائها الملابس السوداء وأكثر من ذلك

مشيتها وهيئتها قد نم كله عن انها لم تكن من عامة أهل المدينة ،
ومن ثم أثارت ضجة ، اذ كان الناس لم يألّفوا أن يروا سيدة من
الأسر المحترمة تسير في الشارع دون مرافق . وقد بدت مشغولة
بنفسها حتى انه لا بد أنه قد ظن الناس أنها لا علم لها بما وقع أمام
كنيسة الاطفال الأبرياء أو انها لا تشعر بأنه يمسه ، كذلك كان يظهر
انها لم تلم بما كان يقال على مقربة منها عما حدث ، وانها وهي تشرع
في عبور الميدان لم تكن تنتوى أن تتلبث عند الكنيسة ، وأن تقف عند
هرج الناس ومرجهم ، لكنها وقفت لحظة وكأنما طرق سمعها اسم
الميت الذي كان يزداد ترداده على الدوام كلما ازداد المرء اقترابا من
مكان الحادث ونفذ من هذا السمع الى وعيها . ذلك انها غيرت قليلا
وجهة سيرها واتجهت دون أن تسرع الخطى نحو الزحام في هيئتها
المعتدلة . وقد نظر الناس اليها وأفسحوا لها الطريق .

وها هي تقف الآن أمام الجثة مما استرعى التفات الناس
وانتباههم الشديد ، وقد بدا للحاضرين أن الوقت يطول بهم وهو
ما يمكن أن يكون وهما منهم ، ثم رفعت رأسها قليلا وتبينت الآن حقا
تلك اللوحة وذلك المكتوب ، وألم بصرها بالكلمات من خلال النقاب
الذي كان يخفي وجهها وعينيها وبعد برهة ركعت أمام الميت ورسمت
علامة الصليب على صدره وصدرها ثم قبلت يديه في انتباه وهي
جاثية على ركبتيها .

وتقدم الجندي الحارس وقد أقلقه هذا فيما يظهر ، لكن بدا
عليه أنه لا يعرف بالضبط كيف يكون سلوكه ، ومن ثم انتظر
وتنجنح في شيء من الارتباك ، لكن السيدة كانت قد نهضت في
تلك الأثناء ، وهكذا تمتم بشيء لا يدل على تأكد ثم انسحب ثانية
الى مكانه في ظلام الأعمدة .

وأنت السيدة الآن بحركة كأنما تبغى جيب منطقتها الصغير ،
حركة كان يبدو أنها قد اعتادتها يداها ، لكنها تذكرت فيما وضع

أنه كان هناك عائق عاق هذه الحركة أو جعلها على غير جدوى ، وهكذا أرجعت يديها ثانية .

وكانت يداها على غير المألوف عاطلتين من كل حليسة فيما عدا خاتم غير عريض من الذهب فى بنصر اليد اليمنى غير مرصع ، ومع ذلك فقد اعتقلت فتاة واقفة بجانبها انها ترى بوضوح أن بعض الأصابع الأخرى كانت تبدى آثارا اعتاد أن يخلفها التزين بالخواتم سنين طويلة .

وظلت يداها مترددتين فترة أخرى ناحية المنطقة لكن السيدة رفعتهما اثر ذلك الى ارتفاع الصدر تقريبا وخلعت الخاتم الذهبى فى شىء من الجهد عن اصبعها وتأملته وقلبته كما لو كانت تقرأ على باطنه كتابة منقوشة فيه ، ثم رفعتة الى شفيتها والقت به بين قطع العملة النحاسية الزهيدة فى الصفحة . فى هذه اللحظة تأكد لكل الواقفين حولها أن أمامهم تقف مونا اونستا أرملة جاناندرى راسبنتى .

فى هذا السكون سمع وقع حوافر بعض الخيل وقد صمت فجأة وجاء على الاثر رجل يزاحم قاصدا مكان الواقعة . وقد عرف الناس فيه سائس الأردو فولونيا نا ، فتلفت حوله وسأل ماذا هنالك؟ ولما رأى بين الناس حداد الحداوى الذى اعتاد أن يركبها لحبول فولونيا نا قال له انه كان قادما مع سيده فى الطريق ، ولما رأى سيده زحام الشعب وقف فى الجانب الآخر من الميدان وأرسله يستطلع الخبر .

وعرف التابع وتبين الضرورى واستعد للعودة الى سيده . لكن هذا كان قد ألم فى تلك الأثناء بكل شىء من أقوال عابرى السبيل ، اذ جاء يخطر وهو يخبط الارض بعنف يصحبه وقع مهمازيه الطويلين وسط الجمهور الذى أفسح له الطريق ، قاصدا الى الجثة رأسا . وأجال نظراته الملتهبة باحثا ثم وقف مسمرا عند اللوحة .

قال وهو يلهث تقريبا : « الله فى الأعلى ! » وظهر أن التأثير والغضب كانا السبب فى هذا اللهاث أكثر مما كانته العجلة التى عبر فيها الميدان الفسيح . وكان يتنفس فى عسر ، وكان له المحيا الوسيم الذى تمثل فيه انتقاله التدريجى من الصبى الى المرحلة الكاملة لنضج الرجولة العامر بالأفكار والتى كان الناس يعرفونها فيه ، ما فى ذلك شك ، كان محياه الوسيم يبدو للناس لما رفع قبعته وكأنه قد تغير من تأثير هذه اللحظات ، وقد رفع قبعته بحركة بلغ من عصفها أن ريشها الأبيض الطويل حط على أنف صبى خباز وفمه - وكان واقفا بجانبه - وجعله يرتد مترنحا مذعورا تقريبا .

وصلب فولونيا على صدره ثم وقف بلا حراك مطأطأ الرأس وتركزت أنظار الجميع عليه ، وأحسوا التأثير من منظر الرجل ومن الشعر الأسود الذى وقف قليلا واليدين المدينتين غير العريضتين والسترة البيضاء المزدانة بفرو سنجابى فضى والموشاة بالاحمر والذهبى والذى تتدلى منها على الصدر سلسلة ذهبية ثقيلة ، ويعلم الناس أن جده تلقى هذه السلسلة هدية رضى من سلف الدوق الحالى الأول وأن العملات المظهرية المثبتة الى هذه السلسلة تحمل صبور بعض أعضاء أسرة الدوق .

ولم يقف أأاردو فولونيا للناس يستعرضونه بلا حراك الا لحظات قليلة ، ولم يفطن الى ذلك لأنه كان هو نفسه قد تملكه الحادث وتملكته الردود التى تكونت فى دخيلة نفسه جوابا على الحادث حتى انه لم يستطع الالتفات الى ما حوله . لكنه طرح رأسه الى أعلى بعدئذ وأخرج كيس نقوده بسرعة فائقة وكان كيسا من الجلد الأخضر الموشى بالذهب أفرغه فى الصفحة ، وهنا لاحظ كافة المشاهدين أنه قدم كل ما كان يحمل من نقود .

فحلق الناس فى الصفحة مبهوتين وجعل بعضهم يندفع الى

الأمم واشترأت رقاب عديدة وامتلات الصحيفة التي لم تكن تحتوى من قبل - عدا خاتم مونا اونستا - سوى القدر اليسير من النحاس حتى كاد القاع يظل مكشوفاً وبات الآن فيها فضة وعدد كبير من القطع الذهبية ، ولعله كان فيها أكثر كثيراً مما يتطلبه دفن معتدل . لكنه رأى كأنما لا يكفي هذا ، فهو يريد أن يرى الصحيفة مليئة الى حد ألا يدع سبباً لمتابعة هذا الامر هنا ، وليس هذا فحسب ، بل أن يدفن الميت بأكثر من الصورة اللاتقة ، أن يدفن بكافة صنوف التكريم الماثورة ، أجل فى فخامة ، وهكذا أخذ السلسلة الذهبية بل انتزعها تقريبا من رقبتة وحل ، قطع العملة المظهرية مع الازرار الدوقية وهو ما احتاج فيه الى استخدام شئ من العنف ، وألقى السلسلة فى الصحيفة بعد كل ما رماه فيها من نقود ، وقد سمع لهذا رنين حاد وأودع فولونيا قطع العملة المظهرية كيسه .

وارتفعت بين الجمهور هممة الاستحسان ، بل ان بعض الناس صفق بين النداءات المرتفعة . لكن معظم الناس لم يجرؤا أن يسمحوا لمشاعرهم بمثل هذا التعبير ، لأن الوجع الذى كان قد خيم على جمهرة الشعب فى البداية ازداد أخيراً ، وكان سبب ذلك فى الحق وجود شخصين متنكرين ومسلكهما ، وقد انضموا الى الناس وساهما فيما كان يجرى أمداً طويلاً وهما يشهدان ما حدث . كان أحدهما رجلاً طويلاً نحيفاً والآخر قصيراً بديناً دون المتوسط . وكان كلاهما يلبسان رداءً للتنكر أصفر اللون . وهما ما كان الناس يحبون ارتدائه فى تريكرس . وكان على وجهيهما قناع من الحرير الأسود . كان هذان الرجلان يقفان تارة معاً وأخرى متباعدين ، ويبدوان متفاهمين غالباً بالنظرات والحركات بل لقد لوحظ ان الأقصر كان يخرج أحياناً لوحاً للكتابة ويدون فيه شيئاً . وهكذا وقر فى الأذهان أنهما يدونان أسماء أولئك الذين تبرعوا بصدقة كثيرة أو الذين أفلتت منهم تصريحات ، ومع ذلك فلم يجرؤ أحد على التعرض

للهما ، ذلك أن الظن كان أنهما لا بد أن يكونا من حاشية الدوق أو يكونا على صلة به فجعل هذا وذاك الناس يتحولون عنهما دون أن يلفتوا الأنظار .

وأبدى بعض الجمهور عجبهم من مسلك فولونيا ، فقد نسب إلى جهوده سقوط جاناندريا فلم يستطع الكثيرون أن يتصوروا أن للعداوة أيضا حدا يوضع لها فاعتقدوا على التحقيق أن الحط من قدر الميت قد كان مرجعه إلى مسعاه . واعتقد بعض هؤلاء انهم يتبينون الآن في سلوك فولونيا تأثير ضمير يؤنب صاحبه ، وفسروا تبرعه بأنه رغبة منه في التهوين من ذنبه هو ، بعد فعلته . بيد أن أولئك الذين كانوا يفكرون على هذا المنوال كانوا أقلية على التحقيق . وكان معظمهم يشعرون رأسا بأنهم تأثروا بفكرة هذا الذي وقع والذي كانوا شهودا عليه . وكأنما أرضى عمل فولونيا انفعاله الباطن وهذا تأثرته قبات الآن رابط الجأش مستجمعا قواه ، واذ يتحول ويريد الانصراف يرى السيدة ذات النقاب فيعرفها من فوره ، وليكن هذا لأن دائرة الناس التي كان كلاهما يعيشان في داخلها باتت ضيقة . فتقدم منها وقبعته ما تزال في يده وانحنى لها وقال : « مونا أونستا ! » ولما كانت السيدة قد خفضت رأسها بصورة غير ملحوظة تقريبا ردا عليه . مضى يقول في الحاح وبصوت مكتوم إلى حد أن كلماته لم يسمعها أحد غيرها : « أرجوك أن تأذني لي بأن أرافقك؟ » .

ولم تحر مونا أونستا على ذلك جوابا لكنها قالت بعد صمت وجيز : « يجب أن أشكر لك يا سيد فولونيا أنك وضعت حدا لهذه المهانة وأرجوك الصفح ، ذلك أنني وقد رأيت فيك سبب كل ما لحق بزوجي في أيامه وساعاته الأخيرة وأدى إلى نهايته عددتك ، منذ تبينت هذا ، من أحضر زوجي رغما عنه على مثل هذه الصورة ولهذا الغرض أمام كنيسة الأطفال الأبرياء . لكني الآن أرى حقا

أن هذا كان منى رأيا ظالما وعلى الأقل ما يتعلق بالمهانة الحادثة هنا أمام الكنيسة » •

فأجابها فولونيا بقوله : « ان رأيك فى غير هذا أيضا خاطيء يا مونا أونستا ، فلا دخل لى فى موت السيد راسبثتى » • ثم أضاف الى ذلك : « اللهم الا اعتبار غير مباشر هو أنى سعييت فى اقصائه عن مناصبه لدى الدوق » قالت : « كلا ؛ لقد كنت أفترض هذا ومع ذلك فلا يداخلى شك فى كلامك » •

لقد كانت خصوصية هذا المشهد هائلة دون أن يرى أحد حتى ولا فولونيا وجه مونا أونستا ، حتى انه لم يمكن أن ينم عن دخيلة نفسها سوى حركاتها وصوتها • لكنها الآن كانت تسلك سلوك من جافاه التأثير كلية ومن كان صوته متحجرا • أجل لقد كانت السيدة على درجة من الجمود بدا معها أنها لم تعد قادرة على التعبير عن شكوى أو ملام ، ومن لا يدرى الظروف خليف حقا بأن يظن أن مونا أونستا كانت تتكلم عن شيء لا يهمها ، أو أنه وقع من عهد بعيد جدا •

وكرر فولونيا رجاءه بأن يرافقها وأن تسمح له باصطحابها الى بيتها ، فسألته فى جمود : « الى أين ؟ لم يعد لى بيت فى تريكرس فلا تهتم بى ! ، لكن فولونيا لم يستسلم لهذا الرد بل مضى يستحثها ، لما دار الحديث بينهما بالفعل كانت مونا أونستا لا تسعها الرغبة فى أن يصل فحواء الى آذان الواقفين من حولهما فقد انتحت جانبا وهى مضطرة وتبعها هو ، وكانت هذه بداية بالفعل لانصرافهما معا ، وفى النهاية ألفت مونا أونستا نفسها على استعداد لتقبل ذراع فولونيا •

وبينا يشرع فى اصطحابها وقع نظره وهو يبغى شق طريق لهما بين جمهور الشعب ، على كلا الرجلين المتنكرين فى الثياب

الصفراء ، وكان وجهاهما المقنعان متجهين اليه والى مونا أونستا فارتبك لحظة وجيزة ، لكنه كانت تملكه مشاغره ، وكان مدفوعا الى الخروج بمونا أونستا من الغمرة بأسرع ما يستطيع حتى انه سرعان ما نسى ذلك الذى تبينه فى الرجلين نصف تبين .

وانطلقا ، ذات الثوب الأسود وذو الرداء الأبيض ، وأفسح لهما الشعب المكان وتبعتهما أنظاره حتى اختفيا وتواريا عن الأنظار .

ومشيا برهة صامتتين جنبا الى جنب ، ثم قالت مونا أونستا : « هذا ما يعرفه كل انسان فى هذه المدينة ، وأنت أيضا تعرف أننا ، زوجى وأنا ، لم نكن على وفاق تام فى معيشتنا ، لكنى رأيت فيه زوجى والشخص الذى يمثل شرفه وخزيه شرفى وخزىي أيضا : سامحنى يا سيد فولونيا ، لكن ما أقسى ما نزل بى المصاب ، حتى انه ليس الآن من يأخذ بيدى سوى الرجل الذى أسقط زوجى » .

فأجاب فولونيا : « لم أكن عدوه ، لكن كانت لى فى الشئون العامة أفكار تختلف عن أفكاره ، وكنت أسعى الى تحقيق أفكارى كما كان زوجك ينشد تحقيق أفكاره » .

فقالت مونا أونستا : « انى لا أوجه اليك لوما على هذا ، فأنى لأعلم جيدا أن مثل هذا لابد أن يقع فيما يكون بين الرجال والأحزاب من نزاع على السلطة . وقد كان أيضا على زوجى قبل أن يصل الى السلطة أن يقضى أولا على سلطان الرجال المعارضين له وعلى حزبهم » .

وكانت ما تزال تتكلم بصوت وتير جدا كأنما حرمت القدرة على رفعه أو خفضه . كذلك لم ينشط صوتها لما جعلت تروى له

جانبه الآخر الى سيمانيرا ، عاود الكلام وقال فى حينه انه لن يطيق أن تغادر المدينة على هذه الصورة فتذهب الى المجسول مستجدية وتمضى الى ما لا تظمن اليه . فالأحرى أن يرافقها الى أمه فسترحب بها فى بيتها وستجد هى فيه كل حماية .

فمانعت مونا أونستا ، لكن فولونيا لم يتراجع . . . ولما كان ما خبرته قد أضعف قوة ارادتها وعزز بذلك قوة ارادته فقد رضخت فى النهاية .

وسارا من تلك اللحظة جنبا الى جنب مستدبرين الزحام من أمد ، وبلغا شوارع لها مظهر النهار العادى وأخرى بعدها غير مرصوفة وقليلة النشاط ، وتلاشت كل ضوضاء وصافح سمعها فى ذلك الوقت تغريد الطيور تعلن عن حلول الربيع ، وكانت شبهة الجو تميل الى الانقشاع ، والسما آخذة فى اتخاذ لون رقيق بميل الى الزرقة .

والم بسمع مونا أونستا والأردو فولونيا وقع خطوات من خلفهما بسرعة تتوثب عن قرب فأحسا أنه لا بد أن تكون لهن الخطوات صلة بهما ؛ لكنه لم يلح لأى منهما أن من المناسب أن يلتفت إليها . ووقف على الأثر أحد الرجلين المتنكرين عندهما وهو ينهج قليلا ، وكان الأقصر قامة والشخص الذى يميل الى البدانة فأنحنى وحسر القناع عن وجهه ، وكان رانشيو خادم الدوق الخاص وموضع ثقته وهو مخلوق منحط فاز من صداقة الدوق وصراحته بأكثر مما أبدى الدوق نحو الوجهاء من رجال بطانته .

وفى تلك اللحظة فطن فولونيا الى أنه كان قد تبين كليهما من قبل لما أوشك أن يبارح رحبة الكنيسة مع مونا أونستا ، لكنه لم يستطع أن يستبقى فى وعيه هذا التبين كما ينبغى . بل انه تبين الدوق الذى كان يعرف مظهره ومسلكه أدق المعرفة . بل انه

لاح له الآن أنه لابد أنه عرف من تحت القنصاع الحريرى الأسود ذلك الوجه الشاحب المتوعك ذا العينين الصغيرتين البارذتين المستريبتين وتساءل عندئذ هل تبينه الجمهور فى الحق بالمثل ، الجمهور الذى لم يألف منظر الدوق كما ألفه من يخالطونه ، لأن الدوق قل أن ظهر فى المدينة جهرة ؟

جال هذا كله فى رأس فولونيا نا بسرعة خاطفة • وقد رأى رانشيو يحسر القنصاع عن وجهه وينحنى له ، وسمع خطابه • لكنه الآن لم يستطع أن يتابع أفكاره ، لأنه كان لابد أن يوجه التفاته الى ما كان رانشيو مكلفا بأن يبلغه اياه •

ومط هذا صدره ، ومع أنه كان لا يفتأ ينقل نظراته من فولونيا نا الى مونا أونستا وكلها حب استطلاع فقد تظاهر كما لو كانت هذه غير موجودة وقال : « ان صاحب السمو ينتظر ك يا سيد فولونيا نا فى الايوان الأحمر بعد دقائق ساعة الظهيرة • »

فأجاب فولونيا نا : « حسن • سأكون فى الميعاد • »

وكان يمكن أن يبتعد رانشيو بعد هذا ، لكن يبدو أن غروره لم يحتمل فكرة أنه لا يكون شيئاً غير حامل رسالة أو أن الدوق حملة ، ربما على سبيل التلميح ، مهام أخرى مستمرة ، أيا كانت الحال فانه قد حاول أن يطرق باب الحديث فيما وقع فرفع صوته بملاحظته • قال : « انه يبدو أن صاحب السمو يرى يا سيد فولونيا نا أنك بدأت عهد خدمتك بعمل يدل على أريحية غريبة • » وغمز فى ألفة جريئة عوده عليها مركزه •

وجهد فولونيا نا فى التوفيق بين الاستهانة التى كان يحسها لشخص رانشيو والاحترام الذى كان عليه أن يبديه نحوه كرسول للدوق ، فأجابه بقوله انه تعلم أن يرى أن دفن الميت هو فى الحق

آخر ما ذكر بين الأعمال البدنية السبعة التي تتطلبها الرحمة وتفرض على كل مسيحي القيام بها . لكنه لم يقل قط أن تنفيذ هذه الوصية تأتي بعد الواجبات الستة الأخرى .

فرد رانشيو : « ان هذا التفكير يشرفك ، لكنه يبقى أن يسأل . حقا هل أردت بمسلكك أمام كنيسة الأطفال الأبرياء الوعظ بتعليم أو اصدار حكم بأن جانبا آخر على سبيل المثال قد أهمل في الحرص على قاعدة مسيحية أو عمل رأسا على مخالفتها ؟ » .

فأجابه فولونيا : « سأقدم الحساب عن هذا الى صاحب السمو اذا شاء » . وتركه يفهم من هذا أنه لا يشعر بأنه ملزم بأن يقدم حسابا لرانسيو .

فرد رانشيو : « عد هذا ما تشاء ، فسيدور الحديث في هذا وربما في غيره في الايوان الأحمر ما في ذلك شك » . وثبت القناع على وجهه ثانية وهو يضحك ضحكة مقتضبة ، وانحنى والصرف . وتابع فولونيا ومونا أونستا سيرهما ولم يتحادثا عن رانشيو ولا عن رسالته .

وكان بين من حضروا ذلك المشهد الذي قام أمام كنيسة الأطفال الأبرياء الرسام فرنسيسكو سكارتييزي أيضا . وقد استوقفه وهو في طريق عودته من وليمة . وكانت قد تملكته رحمة أقوى مما تملكته كل من عذاه من المشاهدين تأثرا من هزة لا من سخط ، لأن ما انفع به لم يكن ما سبق حدوثه وما لا بد أن يكون . أدركه بفكره بل ما عرض لعينه كشيء حاضر ، فلما عاد الى بيته سجل في الحال وقبل أن يأوى الى فراشه ماشاهده وما نفذ بالنظرة الى نفسه رسما كروكيا بالقلم تتناوله هنا وههنا أيضا بضعة ألوان بالفرشاة ، اسعافا للذاكرة ، وذات دلالة بالصدفة وقد نشأ من هذا فيما بعد صورة زيتية .

وقد التقطت الصورة وتثبتت تلك اللحظة التي انتزع فيها
أوردو فولونيا سبلسة الرضى ، وحقا لقد أقيم لهذه اللحظة وزن
هى جديرة به ، وهى لحظة أخرى بأن تبدو فحسب تعبيراً عن عمل
خفى جليل يرفعه آنئذ ضوء تلك الساعة الغريب الى ظاهرة عظيمة
الشأن . لقد وجد جميع من ساهموا فى الحوادث أمكنتهم فى الصورة
كان فيه كذلك تلميح للتباعد الخفى الذى بدأ يلوح بين الجمهور
وكلا الرجلين المتكرين فى القناع الأصفر ، حتى سائس الخيل لم
ينقص من الصورة ولا حداد الحداوى المعروف بثوبه الجلدى المبتذل
أو الفتى الذى كان يقرأ اللوحة والذى كان قد ابتعد فى الحقيقة
لما أقبل فولونيا بل عند اقبال مونا أونستا . لقد جحظت عيناه
لمرأى السيد ذى الرداء الأبيض اذ كان ابهامه المسدود المشير الى
المكتوب على اللوحة ما يزال موجهاً اليها فى خشونة . لكنه بدا أنه
نسى هذا المكتوب تقريبا بجانب الحادث الذى لاحت له فذاذته وهو
أن أحد الناس تجرد طوعاً عن نفائسه ، لكن أحداً من كل من صوروا
لم يطغ على الصورة حتى ولا فولونيا أو مونا أونستا ، بل أن
ما استقر فى عقل الرسام قبل غيره قد كان تلك الساعة الحدس
الذى أخضع كل أولئك الناس وأخضعته معهم . لقد تشابكت
الحركة والسكون معا ، تشابك المستجدون والمبتعدون ، الفعالون
والمتهاونون ، الخبيرون والمتأملون ، وتداخلت حمرة جدران الكنيسة
المكتومة وبذلات العمل القائمة وثبات التنكر الزاهية والأقنعة
الصفراء والسواد الفاحم فى ثياب السيدة ذات النقاب والبياض
والذهب فى سترة الرجل . لقد لطفت السماء الغائمة من حدة الألوان
المتجاورة رأساً . ومع ذلك تجاوزت هذه الألوان عتمة الصباح
الوئيدة الكدرة الى فعاليتها ، فانتقل غبش ضوء الفجر واهنا الى
حبغه بلون الصدف أو بلون يكاد يتم به لون الفضة . وقد بدا
هذا الانتقال يعنى فى نفس الوقت ذلك الانتقال الآخر ، اذ مال ذلك

المرح الطاغى الذى حل به التعب وibat مشوها بجمود مهلك ، ثم عادت تتألف من هذا رقة جديدة للقلوب وتقبل لا للحوادث فحسب بل أيضا لأهميتها ، وهكذا وفق الرسام الى التعبير عن صورته عن الشيء المستتر ، عن الشيء غير المعقول فيما وقع بمعنى حقيقى لعله عظيم ، ولعل المرء قد تبين هنا شيئا من نور السحر الذى تتحرك فى ضوئه كل الأعمال والمصائر فوق هذه الأرض كما لو كانت فى ردهة يحسدها ضوء النهار الساطع .

وقد أبقى سكارتيذى هذه اللوحة طويلا طى الحفاء ، ولم يجرؤ الا بعد عقدين من السنين ، أى بعد وفاة الدوق ، على عرضها للبيع لبيير فولونياىنا ابن أالاردو فولونياىنا من مونا أونستا الوحيد الذى لم يشهد أباه اذ لم يولد الا بعد سقوطه واعدامه الذى أنهى مدة ولايته فى عام ونصف عام ومدة زيجته بعد نصف عام . وقد حصل هذا الابن على الصورة وحملها الى أمه التى ثرملت مرتين .

وصرخت مونا أونستا لما رأتها ، لكنها لم تتركها بعد ذلك بعيدا عنها . وفى مرضها الأخير كان لابد من تغيير وضعها بحيث تكون نصب عينيها على الدوام وهى على فراش الموت كما هى الحال فى العادة مع الصورة الدينية الأثيرة العامرة بالرحمة . لكنها احترقت فيما تلا من الزمان لما طارد شعب تريكرس حفيد الدوق ودمر فى خلال ذلك بيوت بعض النبلاء أيضا دون تمييز بين ملاك هذه البيوت ، من أنصار البيت الدوقى أو من خصومه . وهكذا لم يحفظ من تلك الصورة ومن المصائر التى سجلتها الصورة سوى الذكرى التى يمكن أن تبقى طى صفحات هذه القصة على سبيل المثال بعض الأمد .

ثقفة الطائر

« Das Vogelschaelchen »

أسماء الشخصيات

Cola di Rienzo

Gabrini

كولا دي رينزو

جبريني

كان كولا دى رينزو الذى أدار أبوه حانة غير بعيد من طواحين
التيبر يحكم آنذاك شعب روما ، وكانت كافة الملوك والمدن تعرف
اسمه ، لكن خبرا ما جد لم يكن وصل الى القرية الصغيرة الواقعة
خلف أنانيى والتى كان يعيش فيها عمه جبرينى .

ويجب أن يعرف أن جبرينى أرمل ، وهذا أمر لا يكرهه ، لأنه اذا
كان المرء قد عاش مع زوجته تسع عشرة سنة فانه يجب أن ينشد
الراحة آخر الأمر ، وهو ليس له أولاد ومزرعته صغيرة يزاولها
بنفسه اللهم الا أن يستعين فى الربيع والحريف بضعة أسابيع
بطفل يتيم من أنانيى ، والأطفال اليتامى لا يكلفون كثيرا .

ولا يجوز أن يظن أحد أن جبرينى بلا قلب لأنه يحب راحته
ويؤثر ترملة ، فهو فيما خلا ذلك على التعيين يحب بيينو الصغير
بحرارة بالغة . وبيينو الصغير طائر وردى من نوع الشحرور ،
له بطن وردى اللون وصدر وردى اللون ، أما سائر أجزاء ريشه
فأسود مائل الى الزرقة ذو لمعان جميل . ويسكن بيينو قفصا
مجدولا من عيدان الصفصاف وفى كل سنة بعد تبديل ريشه يجدل
له جبرينى قفصا جديدا . وليس بيينو أجمل الشحارير الوردية
جميعا فحسب بل هو أعقلها . ويصعب أن يتصور المرء كل ما يتعلمه ،
لكنه بكل أسف ينساه دائما اذا ما خرج من موسم التبديل ، وتلك
عادة هذه الطيور ، ثم يبدأ تعليمها من جديد بالصفير والكلام
أمامها . وهكذا يجد جبرينى تسليته ، فهو خير بأن يعلم بيينو

ويسأله الراكب : « أنت جبريني ؟ » .

فيقول : « نعم ، هذا أنا ، ويمكن كل انسان أن يؤكدك » .

ويصيح هنا ببينو : « صباحا جميلا طيبا وقدحا آخر أيضا ! » .

فيبتسم الرسول قليلا ، لكنه يفكر عندئذ في أنه أثناء تأدية وظيفته فيترجل في جد عن حصانه ويقدم الى جبريني رسالة .

فيقول جبريني : « أنى لا أستطيع القراءة » .

فيقرأ له الرسول الرسالة وفيها كلمات كثيرة صعبة في ختامها : « سلمت في روما في قصر الكابيتول ، وعليها هذا التوقيع :

« نيقولاوس الصارم المحترم ، محرر جمهورية روما بمعونة الله والغيور على ايطاليا وصديق الكرة الارضية والمدافع الرفيع بفضل الله عن الحرية والسلام والعدالة ، وحامى الجيوش والأرامل واليتامى » .

ولا يفهم جبريني من هذا كثيرا فيضطر الرسول الى التلاوة مرة ثانية ، ويفسر له بعدئذ الرسول أن هذا كله هو ابن أخيه كولا ، حقا ابن أخيه كولا ! لكن الرسالة تتضمن أنه لا يليق أن يعيش أقارب المدافع السامى عن حقوق الشعب معوزين في الخفاء . ومن ثم ينبغي على جبريني أن يغادر مزرعته بلا ابطاء والى الأبد ، ويحضر الى روما .

ويقتنع جبريني شيئا فشيئا بأن هذا في الواقع هو كولا

ويصيح بيينو : « صباحا جميلا طيبا وقدحا آخر أيضا ! »
ويرى كولا ان هذا الطائر الذى جلبه جبريني معه شحور جميل
وهكذا يتبادلان بضع كلمات أخرى ، لكنه يجب بعدئذ أن يعجل
كولا بالتوجه الى اجتماع للمجلس ويقود رئيس الخدم جبريني الى
غرفته .

واذن فهو يعيش الآن فى القصر الكابيتولى وسط الأسرة
جميعا فى أبهة مسعفة . وانه ليحلو لجبريني أن يعاين العمل
ويتحدث الى العمال ببضع كلمات . وقد وجد من بينهم واحدا
يعرفه ، لكن هذا أمر لا يروق أهل القصر . وأهل القصر عديدون
جدا .

ويلقى جبريني عناء فى ابعاد بعضهم عن بعض . وكولا يتكفل
بحاجات أقربائه بكل ما هو حق ، ولقد توفى أبواه ، لكن هنا
زوجته وأطفاله وحمواه والاخوات . ولهؤلاء بدورهم أيضا أولاد وأولاد
أبناء وبنات اخوان وأخوات . وهناك بنات وأبناء أعمام وأخوال
كلهم يتحلون بالذهب وينعمون . وهناك جاني خال كولا الذى كان
يدير فى تراسيتفيري دكان حلاق لجبريني دائما بالمجان كلما زار
أقرباءه فى روما ، كان يحلو لهما اذ ذاك أن يتبادلا النكات ،
ويخبطا فخذيهما من الضحك ، لكنه لا ينبغي أن يسمى الآن جاني
الحلاق ، بل يسمونه السيد جاني روسو ، يضع مهمازين من الذهب
ويحمل سيفاً ذهبياً ، ويعمل كأنه لم ير جبريني قط من قبل .
وهو يتخذ من حوله نصف دستة من الغلمان ، وكذلك امرأة كولا
تدع مثل هؤلاء الأشقياء يحملون ذيلها ، ويأتون لها بهذا ويأتون
بذاك كأنما تدور بالقصر مدرسة للأطفال ، ولطم مرة جبريني
واحدا من هؤلاء الغلمان على خده فعلا فى القصر صراخ شديد ، وقيل
ان الغلام من بيت كريم ومن ثم لا يجوز أن يلطم . وقد أئب الجميع

جبريني ، أبناء وبنات العم والخال وأبناء وبنات الأخ والأخت ،
ما عدا كولا الذى لم يحفل بالأمر فما يزال يحتفظ فى ذاكرته بما
كان يأتى من جهالات .

وقالوا لجبريني أن عليه أن يقصد دائما الى كبير الخدم اذا
رام شيئا . لكنه لم يكن يحب هذا . لقد زوده رئيس الخدم
بملابسه ، لكن الثنيات والتطريزات الكثيرة تجعل القماش صلبا
فلا يستطيع أن يشعر فيه براحة ومن ثم يؤثر جبريني أن يرتدى
بذلته الجميلة التى ابتاعها من أنانيي .

وعلى جبريني أن يحضر الاستقبالات الكبرى ، وهذا يضايقه
كما يضايقه أن يحضر المآدب . وهو يجد أن هذا يتم فى صرامة
وان كان الأكل والشرب وفيرين . وليس ما يدعو الى الشك فى
هذا الباب . لكن هناك دائما أجانب ، فرسانا وقوادا ، ودكاترة
وسفراء يلقون خطبا طويلة غير مفهومة . وان جبريني ليعجب أشد
العجب من أنهم يخالطون كولا كما يخالطون أشباههم . وخير له
فى نفس الوقت ألا يحفلوا به هو .

ويرى أن كافة الأقارب الذين يحملون آلاف الألقاب الضخمة
ويتقلدون المناصب الرفيعة ويتحدثون مع بعضهم البعض عن
صفقات عالمية ومدنية ، يهتمون به أكثر مما ينبغى . لقد حظروا
عليه أن يحضر معه قفص الصفصاف عند تناول الطعام فى قاعة الأكل
ويضعه أمامه على المائدة ، يهتمون بملابسه اذ يبدون عليها كافة
الملاحظات ، وفى كل مرة كان يحتفل بأحد الأعياد ، وقد اندس جبريني
بين الجمهور وشرب من النبيذ فتشاجرت معه الأسرة وسألته أليس
يتلقى فى القصر نبيا كافيا . وحقا ان ما أمر كولا بأن يجرى من
منخرى الجوار لم يكن أفخر ما عنده من أنواع النبيذ . لكنه سر
جبريني أن يحتسى مع سائر الناس ويشرب الانخاب ويلقى الخطب،

فأُتِ الأُسرة فى تلك الاثناء أن على جبرينى أن ينشد القاء الخطب فى قصر الكابيتول وهكذا يجد جبرينى ما يضايقه عندئذ فيأخذ فى تجنب الاسرة بعض الشيء • وقاعات القصر مترامية يستطيع المرء أن يبتعد فيها • وسرعان ما يلوح أيضا كأن كولا وأهله مشغولون بكافة الهموم والانفعالات فلا يعودون يلتفتون كثيرا الى جبرينى كما كانوا يفعلون فى مبدأ الامر • بلى لعلمهم نسوه تماما فى فوضى هؤلاء الناس الكثيرين المتعجلين • وهذا يروقه جدا •

ويكف جبرينى عن مؤاكلتهم أيضا اذا اهتدى الى أن هنالك مائدة أخرى هى مائدة الخدم • ويجب ألا يظن أن الأكل هنا أردأ منه فى قاعة الطعام الكبرى ؛ كلا ففي أنايبى لا يأكل وكيل السادة كولونا مرة من مثل هذه الأوانى ؛ وكذلك السادة كولونا لا يستطيعون كيّلهم أن يقدم اليهم مثل هذه الأوانى اذا جاءوا لزيارته وليروا فى أنايبى مجرى الأحوال • لكن هنا يمكن أن يمد المرء يده الى ما يشاء بطيبة نفس ، وهنا أيضا رجال متفاهمون يمكن أن يتبادل المرء معهم كلمة • وهنا الى هذا دائما غدو ورواح فى مرح ، ونكات تلقى وضحك كثير ، ولا دخل للمرء هنا بهؤلاء الغلماء الأشبقاء ، أما صبيان المطبخ فبوسعك فى راحة أن تلطم أحدهم على فمه فلا يعترض أحد عليك • • وجبرينى يكرم هنا جدا وينال خير القطع ويوضع أمامه قفص عيدان الصفصاف على المائدة ، ويغدو بيبينو ويروح فى قفصه وهو يحجل ويعجب الجميع بألوانه الجميلة وفهمه الرفيع •

وقد حدث فى مبدأ الأمر أن كان هذا أو ذاك ينتحى بجبرينى جانبا ويطلب منه أن يتكلم مع محامى الشعب أو مع زوجته أو مع كبير الخدم ابتغاء تحقيق مطلب له لديهم كإجازة أو رفع مرتب • لكنهم لا يضايقونه كثيرا بمثل هذه الطلبات فهم مواطنون مجربون لا يلبثون أن يلاحظوا أن جبرينى ليس من وسطاء البلاط •

وعلى مائدة الخدم يحكون له كل شيء يحدث ، ماذا ينشئ كولا لدى البابا والامبراطور ، وأنه سيدعو كل الامراء الناكبين الى روما لتستقيم الأمور ويأخذ كل شيء مجراه الصحيح . ويتضح لجبريني في الحال هذا الشيء ، ويتعذر عليه فهم ذاك . ويحكون له أيضا كيف استحم كولا في كنيسة التعميد اللاتيرانية في الحوض الحجري الثمين الذي عمد فيه الأب المقدس سلفستر الامبراطور قسطنطين قبل ألف عام وطهره بذلك من الأدران ، وكيف أنعم كولا على نفسه بلقب فارس وجعل نفسه يتوج في احتفالات ومواكب عظيمة بأكاليل مصفورة بسبعة أنواع مختلفة من ورق الشجر ، ثم أخيرا بتاج فضي ، ويصفى جبريني الى ذلك في انتباه ، ثم يهز رأسه ويجذب اليه صحيفة الخرشوف .

هكذا يشعر جبريني عندئذ بالراحة من كل قلبه . وبعد تبديل الريش لما نسي بيبينو كيف يصيح : « نهارا جميلا طيبا وقدحا آخر أيضا » وعلمه جبريني أن يهتف « ليعش كولا دي ربنزو ! » فهو أيضا يريد أن يظهر عرفانه بكرم الضيافة .

ويتجول جبريني كثيرا في المدينة متنزها ، ويغشى المراعي والحدائق الواقعة خلف الكابيتول ليقنص لبيبينو الجراد والخنافس ويتوجه أيضا الى الحانة الواقعة على مقربة من طواحين التبر والتي كانت تخص أباكولا .

وكان يعجب في الحانة ببزة جبريني الجميلة ، ويدور الحديث عن مجد كولا ، ويقول سروجي مسن يعرفه جبريني من قديم : « كانت أمه تغسل لنا الملابس ولا جناح عليها في ذلك لأنها كانت تؤدي عملها على وجه حسن ، لكنها أتلقت لي مرة سراويل اذ استعملت ماء مغليا أحمر مما يجب وانه لي قال ان كولا هذا قد ركب في صليب صولجانه روح شيطان لا بد أنها تنفذ له كل شيء ويعني آخرون انه لم يكن حسنا من كولا أن يأمر باعدام بضعة

من كبا قواده لأنه كان يمكن أن يعيش من ورائهم كثير من الرجال ويتداول الناس المال ، وفي آخر الامر أمكن العيش أيضا بين البارونات .

أجل ، ولماذا رفع اذن سعر الملح ؟ ويتحدث الناس أيضا عن ضريبة جديدة على النبيذ لتغطية نفقات الحرب .

ويسمع جبريني هذا ويسأل عنه بعد ذلك على مائدة الخدم فهنا النبيذ بلا مقابل فلا حاجة الى الخوف من ضريبة عليه ، وحين يتكلم عن الملح - اذ يريد على التحقيق أن يبدى أنه يعلم شيئا من كل ما يجرى في العالم - يضحك أحدهم ويقول : « ان ههنا ملحا كافيا . واذا شئت أفرغت لك كل ما في الملاحه في الحساء ! »

ويدفع اليه هذا بوعاء الملح بحركة قوية مبالغ فيها فينقلب الوعاء ويراق الملح ، ويتأمل جبريني الوعاء النحاسى مدققا ، انه متعرج قليلا لكنه لامع براق ، ويتناوله راضيا في يده ، وأمامه القفص المجدول حديثا وفيه الشفقة الفخارية الحقيمة ، وهنا يأتى بيبينو أيضا يرفرف بجناحيه ويدس منقاره بين أعواد الصفصاف ويهز رأسه ، ويعجب جبريني بفهم بيبينو ويخجل في نفس الوقت من نفسه تقريبا لأن هذا الحاطر لم يطف بذهنه من تلقاء نفسه من أمد طويل .

واذن فهو يتناول الملاحه ويمسحها بكفه . ويصب فيها قليلا من الماء ويضعها في القفص ، لكنه يأخذ الشفقة القديمة ويلقى بها في صحفة العظم . . . ويغمس بيبينو منقاره في الوعاء النحاسى الجميل ويصيح . « ليعش كولا دى ربنزو ! » ويسود المسائدة مرح شديد بآدى الصداقة .

ولا ينقضى على ذلك أمد طويل حتى يستيقظ جبريني في بكرة الصباح على ضجة وصراخ وقرع أجراس الخطر في القصر ،

فيذهب الى النافذة فاذا أناس شاكو السلاح يهرعون من كل جانب وبينهم بارونات يمتطون الخيول ، فيرتدى ملابسه ويوصوص من ثقب باب غرفته فيرى أناسا يعدون في الأروقة ، موظفين في البلاط. وغلمانا وخداما وأقرباء بعضهم يحمل ربطا أو نفائس . وفي داخل القصر أجانب عنه بالفعل وجرس الخطر ما يزال يدق . ويتعالى الصياح : « الموت لفارضى ضريبة الملح لتسقط ضريبة النبيذ . اقتلوهم ليعش السادة كولونا . لا تسمحوا لأحد بالخروج . كل شيء ملك الشعب . النار . الحريق » .

ويعود جبريني الى غرفته ويلبس حذاءه على عجل ، ذلك الحذاء الجلدي الذي اشتراه من أنانيبي ، بينما كانت بضعة أحجار تتطاير عبر النافذة ، ثم يقتطف قفص الطائر وينطلق .

ويسلك طريقه من أجزاء البناء الخلفية ، هناك حيث مساكن الخدم ودور الادارة المنزلية ، وينفذ من الجانب الامامي ومن الدرج الرسمي ومن القاعات الفخمة ضجيج طاغ ، وصراخ عراك وصراخ خوف وصراخ حنق وصراخ موت .

ويخترق جبريني أماكن مهجورة يسودها السكون ، فيعبر عبر فناء الادارة المنزلية ، فهناك باب جانبي مفتوح يفضي منه ممر الى بعيد على امتداد جدار كنيسة القديسة مريم في آراكولي ، ويبلغ جبريني الباب الصغير فاذا رجال مسلحون هائجون يعدون نحوه فيسقط في يده ، ويغص الفناء خلفه بالمثل ، وتدق الاجراس دقا شديدا مروعا ويحمل الهواء رائحة الدخان ويتصايح الناس : « الموت للمحامي ، ليعش السادة كولونا » ويحاط بجبريني .

ويزار رجل من نقابة القصابين : « هاكم واحدا منهم » ، ويصيح وهو يحمل ساطورا : « اقتلوه ، انه يريد الهرب بشيء » .

الاسود المتألق فى أشعة الشمس ثم ينفذه فتتناثر منه القطرات
اللامعة ويصبح يبينو فوق ذلك منذ بدأ تبديل الريش التالى فى
مرح زائد : « ليحيا السادة كولونا ! » .

فاذا جاء جبرينى أحد جعل الطائر الوردى يهتف ثم يرى
جبرينى الزائر الوعاء النحاسى ويأخذ يقص عليه كيف كانت
مسألة الملح وسعره .

على هذه الصورة عاش جبرينى عدة سنين أخرى طويلة .

رجائي • ان أخى يريد أن يدع لى أن استدعى هذا الأستاذ أو ذاك من أساتذة اللعبة كما يروق لى ، ومن ثم فهو يبدى نحوى هذا الكرم فى شئون اللعبة على الأقل • وقد لعبت الى الآن كثيرا مع هذا المسيحى • فاذا يسر لى أن أقارن أساليب بعينها فى الهجوم وفى عادات لاعبين آخرين بأساليب هذا المسيحى وعاداته كان لهذا قيمة عظيمة عندى وأنت تعرف أن لى افكارا عديدة فى الشطرنج • «

فأجاب حسام : « ان الملك أخاك قد سمح لك حقا من قبل أن تستقبل لاعبين آخرين • لكنه أمر بأن يتم هذا بعد رضاه • «

فعاود عبد الله جولته ولم يستطع حسام أن يرى وجهه •

وقال الأستاذ : « لقد حركت » •

فجلس عبد الله الى الرقعة وعانين الموقف •

وكان رد حسام - ولا نتكلم عن الشطرنج - قد حول موقف عبد الله الى مأساة •

فقد كانت رغبة الملك أن يظل أخوه جاهلا أحداث العالم بعيدا عن الاتصال بالعظماء والمحاربين الذين كان يبدو أن الملك يشتبه فى ميلهم الى أخيه ، وعلى كل فقد تنازل له عن زيارة كبار أساتذة اللعبة اياه ب قيد ، هو ألا يدور حديثه معهم عن شىء لا يتصل باللعبة وقد نبه على الحراس أن يلتفتوا الى ذلك •

وكان بين اللاعبين الذين جاءوا الى عبد الله بموافقة الملك رجل استماله أنصار عبد الله الى قضيتهم • وفى حياة الملوك كما فى حياة الشعوب حوادث قل ألا يلمح اليها بصورة ملفوفة عن طريق لعبة الشطرنج • وألعاب الشطرنج عند الشرقيين تختلف عنها عند الشعوب المسيحية فى أوصاف القطع التى لا تسمى أئمنها الملكة بل الوزير • وقد أبدى اللاعب الذى استميل - أثناء اللعب بضع

ملاحظات فتلاقت نظرة عبد الله بنظرته ففهم أن هناك أخبارا له ،
وقد علم أن الملك مريض وأن الفصل في شئون الدولة أصبح في
يد الوزير أكثر من ذي قبل .

وباهى اللاعب بأستاذ في اللعب من معارفه يلم بشطرنج
المسيحيين أيضا أولئك الذين لا يلعبون بمائة وثمان وعشرين
خانة ، بل فقط بأربع وستين ، ثم ان لهم قواعد وقطعا أخرى .
ولابد أن يهم عبد الله على التحقيق أن يعرف هذا النوع من اللعب .
فهم عبد الله قصده وأنهى إلى أخيه أن يستبدل له بخصمه في
اللعب إلى ذلك الحين هذا الأستاذ وقد جاء وأتى معه بلعبته هو .

وكان لهذا الأستاذ طريقة ماهرة إذ يخلق على الدوام مواقف
متشابهة ويشير إلى أهمية هذه المواقف فلم يلبث عبد الله أن علم أن
الملك فردينان سيد أراجون وزوجه الملكة ايزابيلا سيدة قشطالة
استأنفا الأعمال العدائية التي كانت قد انقطعت . واقتضى الأمر
الكثير من الحيل ليوهما الحراس الذين كان في جملتهم عليجون
أيضا باللعبة أن كل هذه الحوادث إنما تتبع جميعا في المباشرة
الطبيعية ، الدائرة بين خصمين في الشطرنج . فالهجمات التي كان
أستاذ الشطرنج يجعل ملكته تشنها على الدوام على إحدى الطوابي
دون أن يكون لهذا في سياق اللعبة ما يبرره كانت تنبه عبد الله
إلى حادث نشوب حرب من هذا القبيل . فكان عبد الله يهمل تأمين
الطابية لأنه كان يريد أن يرى هل يستولى عليها الآخر ، واستولى
عليها الآخر وهو يتحدث عن الطابية الشرقية . فتبين عبد الله أن
حصن الحمى قد وقع في أيدي المسيحيين . وكان هو نفسه قد
صمد فيه بعد أن فرض عليه الحصار عدة مرات قبل أن يسلبه أخوه
حربته ليستطيع أن يشعر بأنه آمن على عرشه .

كانت هذه هى الرسالة الأخيرة التى وصلت الأسير • وكان
العبد المسيحى هو الذى عينه الملك مولاي نفسه سميرا له لا كانسان
بل كصاحب براعة فحسب فى لعبة الشطرنج •

وقد حدا عبد الله أمل دفعه الى تصريحات كالتى كانت أحاديثه
الخفية مع رسل الشطرنج تمهد لها •

قال الآن : « كش الوزير • أو انك معتاد أن تقول الملكة ؟ »

فأجابه العبد هادئا : « ان تسمياتكم معروفة لدى معرفتى
بالتسميات المسيحية » • قالها دون أن يبتعد بعين الفكر الرصينتين
عن الرقعة •

ثم قال : « كذلك نقول العذراء على اسم العذراء مريم • »

فصاح عبد الله : « كش العذراء • وكأنا مسيه هوى مفاجيء
ثم ابتسم على الأثر ابتسامة مرة لأن مجرد كلمة قد كفت لأن
تنسيه جدران القلعة وقد كان محتجزا فى لعبة رقعة ، محتجزا عن
سيهاد قومه وعشيرته ضد أتباع العذراء وابن العذراء •

ونفض وعاد يخترق الغرفة مارا بالحرس مرة بعد أخرى فوق
البلاط ، فاذا أغمض عينيه تمثل بلاطات الشطرنج فينحسر فوقها
الأبيض عن الأسود •

وانفتح الباب ، ووقف فى تيار الهواء تابع خاص • من أتباع
الملك فخطا عبد الله نحو الداخل ثلاث خطوات عجلي ثم وقف ، وخطا
الخطوة الأخيرة نصف خطو وهو يجر قدمه اليسرى جرا وثيدا •
وهب الحراس الجالسوز فى اجلال ، وتنبه حسام ونفى عن نفسه
الوسن أما المسيحى فظ • حده مكبا فوق الرقعة •

وانحنى التابع ، انحناءة مقتضبة يكاد لا يكلف نفسه منونة
التحية بشبك الذراعين .

قال : « أنى أحمل اليك رسالة يا عبد الله . فهل تريد أن
تسمعها على انفراد أو فى حضرة هؤلاء الرجال ؟ » .

فسأل عبد الله : « وهل تبقى خافية على هؤلاء الرجال ان أنا
سمعتها وحدى ؟ » .

فأجاب التابع : « كلا » .

قال : « اذن أبلغ ما كلفت به » .

فسكت التابع برهة ثم أخرج شيئا أبيض من منطقة زناره .

قال : « يا عبد الله ، لا تراع ، فان النبى أيضا كان لابد أن
يموت ، لقد أعطانى الملك أخوك هذا الحبل لك » .

وتلت لحظات لم يحرك فيها أحد ساكنا ، اللهم الا المسيحى
الذى رفع وجهه عن رقعة الشنطرنج الى التابع فى دهشة بطيئة كأنما
أدرك الآن فقط رويدا رويدا أن شيئا ما اعترض مجرى اللعب .

وتحول عبد الله ، ولم ير أحد وجهه ، وارتدت نظرة العبد
المسيحى الى اللعبة ، وجعل المسيحى يمد يده المتجعدة المعروقة
الزرقاء فى سواد كأنما يريد أن يحرك قطعته ، لكنه تركها تسقط
ثانية ، وبقي من غير المؤكد هل كان غير واثق تماما من التحريكة
التي كان بسبيل اتخاذها أو أنه تبين أن تحريكه أيا كان نوعها
لابد أن تكون عملا غير لائق بل فضيحة ، فكان يجاهد الاغراء فى
اتخاذها مع ذلك .

وقد تدبر المسيحي نقلته وتخطى عبد الله الخانات التي فصل فيها بين الأبيض والأسود دون هوادة كما يفصل بين الحياة والموت .
ووقف عبد الله أمام تابع الملك الذي كان يدير الحديث مع حسام همسا تتخلله فترات من الصمت .

قال : « لعلك لم تنس أنى آثرت فى كثير من أحداث العالم ،
وقد آثرت فى . وقد رتب أخى أن أظل جاهلا بكل الوقائع ، لكنه
الآن لم يعد يخشى أن استغل علمى بهنا فى الاضرار به ومن ثم
أرجوك أن تخبرنى فى ايجاز ما هى ظروف الملك والمملكة والأعداء ،
ان أخى سيقر هذا ولا حاجة بك الى أن تخفى عنى شيئا يعلمه
هؤلاء الرجال الآخرون غير كل حال . أو يصل غدا دونك الى أسماعهم
وتأكد أنه لن يصل شيء الى سمعى بعد اليوم » .

فتشاور التابع بالنظرات مع حسام ، ثم روى ما وقع لحسن
الحمى ، وهو ما حدث بلا ريب من بضعة أشهر مضت واتصل علمه
بعبد الله وكان التابع مؤدبا اذ نوه هنا بفضل عبد الله فى الدفاع
عن الحمى واستطرد فى روايته وحكى صورة لحالة مضطربة متضاربة
كما تعبر عنها غالبا فترات الراحة بين المعارك وتحاشى التابع أن
يصدر حكما على الأشياء وقص أن الملك فردينان والمملكة ايزابيللا
أبديا استعدادهما للمفاوضة .

فسأل عبد الله : « وماذا سيطلبان ؟ » .

فأجاب التابع : « يقولون جزية سنوية ونزولا عن بعض
المناطق وتقديم رهائن والسماح باقامة الشعائر الدينية المسيحية
ومحاولة الردة الى المسيحية فى أراضى أخيك » .

وسأل عبد الله : « وأخى ؟ » .

قال : « ان أخاك أصيب من عشرة أيام مضت بالفالج » .

ثم تردد التابع لحظة • لكنه لم يتخرج من أن يصرح بشيء كان يعلمه كل أحد • فقد أصيب الملك مولاي بالفالج في المسجد وكان كثير من المؤمنين حاضرين •

ولف عبد الله الحبل الأبيض حول أصابعه ومعصميه ثم تركه ينزلق بعنف من يديه المتين سرت فيهما الرعدة فجأة •

واستطرد التابع متعجلا : « وسرعان ما استرد الملك مولاي وعيه واستعاد كذلك طواعية أعضائه وطلاقة لسانه • ومع ذلك لم يخل أطباؤه الحاضرون من قلق عليه ، وكان الملك أيضا قلقا على ولاية ابنه الصغير على الأخص » •

فسأل عبد الله : « وهذا القلق هو سبب الأمر الذي أصدره ؟ »
فأخني التابع رأسه •

وقال العبد : « لقد نقلت .. » •

فتحولت أفكار عبد الله عن هذه اللعبة العجيبة وعادت إلى الرقعة السوداء البيضاء رقعة حقيقته التي انتظر عليها هجوما من الوزير الخصم •

وقال للتابع : « شكرا » • ثم توجه إلى مائدة اللعب •

ونقل النقلة المضادة وهو واقف ، ثم توجه إلى النافذة •

وكانت النافذة المؤمنة بالقضبان تتجه نحو الشمال والليل ملبدا بالغيوم يعلوها هلال قمر جديد يبرز نوره حدود كتل الجبال ، وقد طالما تأملها عبد الله حتى ليعتقد أنه يتبين كل قمة فيها ، وتناهي نقيق الضفادع من البركة ، وأطمت وجه عبيد الله الأسراب المجنحة المتهاوية التي استهواها القنديل ، وسمع صياح ديك ، وقطع الديك

عليه أن يوجه حركات القادة وهيئات الجيوش ، وشعر بأن تصرفات الناس والشعوب توجه الى أغراض لا يعرفها الموجه نفسه ويجب ألا يسأل عنها ولا يدور أبدا قتال أيضا حول غاية وإنما يدور دائما حول النصر .

ومد عبد الله يده ليحول « الرخ » فسمع أصواتا فأدار رأسه نحو الباب ، وبقيت يده ممدودة تؤدي الابهام والسبابة اللتان أراد تناول الرخ بهما الحركة في الفضاء من دون وعى .

وعاد حسام والتابع ثانية ومن خلفهم ثلاثة رجال شاهرين السيوف تتصيب وجوههم المحتقنة عرقا .

وبقى الباب بعد دخولهم مفتوحا ، وسمع في الممر صليل وكلام .

ولم يكن عبد الله قد تبين الرجال بعد ، حين جعلوا يصيحون ويختلط صياحهم خشنا : « لقد مات الملك » . - « الوزير مقبوض عليه » . - « يا عبد الله الزغل » . - « الى ملقة » . - « يجب أن تكون ملكا » .

فنهض عبد الله متباطئا وأصابه المقوسة أعضاؤها الظاهرة تعتمد على المائدة وتحمل عبء الجسم النامي .

ومد عبد الله يده اليسرى الى قلبه الذي كان يبدو خفقانه في تدافع أنفاسه السريعة وأتت اليمنى بحركة كأنها تبغى تهدئة أحد .

وخر الجميع وبقي العبد المسيحي وحده جالسا الى المائدة

وتوجه عبد الله الى النافذة وجعل يتنفس ، فلم ير لا جبلا ولا نجما وقد كان لكل موقعه . وعاد أدراجه الى وسط الغرفة وجعل يهز رأسه مغموما .

• ولاحظ أنه كان قد ألقى بالحبل من النافذة •
• وسمع من ينادي من الممر : « يا عبد الله الزغل » •
فابتسم عبد الله هوناما وقال : « دعوني أكمل اللعب ثم
أركب معكم » •

• وجلس أمام المسيحي : وصمت الجميع أجلا • وتقل
عبد الله •

وفي أثناء اللعب أوما بغتة إلى التابع ليوافيه إلى جانب مقعده
المنجد ، وخلع كل خواتمه من أصابعه وتناول كلتا يدي التابع
والبسبه قطع الحلوى دون أن ينبس ببنت شفة ودون أن يرفع بصره
إليه ، بل دون أن يخول عينيه عن رقعة الشطرنج •

• وحركت خمس نقلات أخرى • ومات ملك المسيحي •
فنهض عبد الله وقال : « انك حُر • عد إلى أهلك وبلغهم
رسالتى • كش الملك • كش الملكة • كش العذراء ! » •

عروس الدب

« Die Baerenbraut »

اسماء الشخصيات :

ليزو

داغني الكنيسة

Lisu

Pastor

قديمًا أيام أن كانت ماتزال في كورة تيريكشن ذبية كانت فتاة تعيش بين القرويين لا مكان لها في هذا العالم على حد تعبير الناس ، كانت الأم عزبة وماتت نفسها . وقيل ان الأب كان جنديا ، أى جندي ، سويديا أو روسيا أو سكسونيا أو بولنديا ، علم ذلك عند الله ، فقد مر الكثيرون بالبلاد ، وكان القرويون خليقين بأن يهملوا الطفلة ، لأن الوقت كان قاسيا ، لكن راعى الكنيسة أمر باستدعاء شيخ القرية وأنحى على ضميره المسيحي باللائمة ، وكانت عصا ركوبه إلى ذلك موضوعه أمامه على مكتبه ، وبذا بقيت الفتاة في رعاية القرية . ففي كل سنة تنتقل من مزرعة إلى مزرعة أخرى ، بدأت بتأجير القرويين حالا ، لأن الانسان في أول عهده بالحياة لا يصلح الا للأكل ، لكنه حين يبلغ الرابعة من عمره يمكن أن يستخدم في الحراسة اذا ما أبطله المرة عادة اللعب . وهذا يفهمه القرويون جيدا .

كانت الفتاة تسمى لينرو ، فلما بلغت السادسة من عمرها انتقلت إلى بوري ذي الرجل الشوهاء ، وكانت امرأته تسمى ذات الرجل الشوهاء نسبة إلى زوجها ، وان كانت نفسها معتدلة القدمين تستطيع أن تعدو كالذئب ، وكان زوجها يرى أيضا أن لها صوتا كعواء جراء الذئب ، وكذلك كان هذا رأى لينرو ، ولينرو قد نسيت الخوف ، فلا يعرف الخوف من جاوزت علاقاته الحدا ، لكنها كانت تخاف ماريه ذات الرجل الشوهاء .

وكانت لينرو تقعد فى الغسابة تحيك لمارية ذات الرجل الشوهاء بينما ترعى أبقارها ، وكان من العسير عليها أن تقسم وقتها ، لأنها هنا لم تكن لها بعد مفاهيم تجارب ، كما يكون أيضا للمحيوان تجارب ، كانت تقضى أطول مما يجب من وقت فى جنى التوت وأقل مما ينبغى فى الحياكة ، فتضربها مارية مساء بعقافة النار ، فاذا أطالت فى الحياكة أكثر مما يجب وأقلت مما ينبغى فى جنى التوت بقيت جوعانة ، ذلك أن كسرة الخبز التى كانت تتلقاها لم تكن تكفيها ، وكان هذا الخبز أيضا معجونا بالتبن المخروط ولحاء الشجر المطحون : ولاشك أن شيخ القرية لم يكن يأكل غير ذلك .

وفى أيام الآحاد كان عليها أن تخفر البيت وترعى الأطفال أثناء غيبة ذى الرجل الشوهاء وزوجه فى الكنيسة ، فكانت ليزو تربط أصغر الأطفال من رجله برجل المائدة كيلا يؤذى نفسه وتجرى الى البحيرة اذ كانت سمعت أن الغرق فى البحيرة لا يستغرق طويلا وأن حوريات البحيرة يعطين الغريق خبزا من الدقيق الصافى، لكنه فى البحيرة كان يرسو زورق تجديف يجلس فيه كاتب السيد المحترم يصطاد ، فنادى عليها أولا بالألمانية ثم لأنها لم تكن تفهم اللغة التى يتكلمها سيد الناحية بالاستونية ، نادى عليها بمنعها أن تحاول الاستحمام حتى لا تعوق بذلك صيده . فعادت من ثم أدراجها وفكت الطفل وارتمت تعول وهى تنشب أصابعها وأسنانها فى فروة الخروف القديمة التى اعتاد القرويون أن يناموا تحتها فوق دكة الموقد .

فكرت فى ذلك وهى تحرس الأبقار ، وفكرت أيضا فى أنه قد أريد بها ما لم يرد بسائر من تعرفهم من البشر ، لكنها لم تفكر كيف يذكر عادة أولئك الذين يتحدثون منذ الصغر كثيرا عن كافة أنواع

الحوادث مع بعضهم بعضا فيتبعون في تفكيرهم نظاما ماثورا ، بل لأن أحدا لم يتكلم معها قط الا أن يصدر اليها أمرا أو يسلمها بلسان حاد ، ولأنها كانت دائما تقريبا وحدها في الغابة هكذا كان تفكيرها أيضا لا يتجاوز شيئا كسمكة السلمون ، قفز من النهر ثم عود اليه ، كما أن سمكة أخرى قفزت ثم عادت فاخترقت أيضا ، كذلك هي لم تخبر فيما عدا حراسة البقر والحياكة وتناول الخبز وتلقى الضرب شيئا ما ، وهكذا لم تختلف كثيرا عن الحيوان لأن الحيوان يتوق الى حالة ليس فيها ما يهدده ، لكن هذا الذي دفعها كإنسانة سوتها الطبيعة فوق مستوى الحيوان لم يتح له الظهور فيها بعد كما ينبغي ولم يمكن أن يثبت في وعيها . . لهذا كانت تألف الحيوان جدا دون أن تتحجب الى كل خروف أو كل بقرة ، كما يفعل أطفال السادة أحيانا على التحقيق .

ولم يكن ممكنا أن تخشى أبدا حيوانا أو ذئبا كما تخشى مارية صاحبة الرجل الشوها .

وبينما كانت تحشو فمها بالتوت على عجل كما تفيد كل الفائدة من وقتها بدا لها كما لو كانت إحدى البقرات قد تولاهما القلق ، فنادتها ليزو بتلك اللغة التي كانت تكلم الحيوان بها . ولم تكن تفكر في كلمات . وألفاظ أو كانت سمعت كلمات أو ألفاظا من الغير ، بل كانت تجدها بالبداة في نفسها ، فخارت البقرة قليلا ، وركضت خائفة هنا وهناك ، وجعلت تتجه الى هذه الناحية أو تلك . وفعلت الأبقار الأخرى فعلها وأرادت ليزو أن تقفز ، لكنها تريثت قليلا ، لأنها لم تكن فرغت من التهام التوت ، وهنا رأت البقرات تعدو وينهت. خواريها فهبت مذعورة وفمها مليء ، فوقع شيء عليها كالظل الثقيل الاسود الدافئ ، أجل كان دافئا وقاتما تماما .

من رقبته حيث توجد في دغلة الفروة بقعة بيضاء تمتد منها خطوط
صغيرة الى الجانبين .

كانت ليزو شبعانة متدفئة ، ولم يكن ثم ما يهددها من فترات
البزخ والجوع التي كانت تبدو لها وجيزة . وكان لها أن تنام كلما
رأها ، فلم يوجد من يقول لها كلمة تسيء اليها . ولم تكن بحاجة
الى أن تحترس من أحد أو تفر منه . ولم تكن تعي مر الزمن ، ذلك
أنها كانت تعيش في وفرة رغبات مجابة وحاجات مقضية كما
يعيش الجنين في بطن أمه ، والرغبات والحاجات كانت عندها
ماتزال واحدة ، فاذا كانت وحدها عرفت أن الدب القادر سيكون
ثانية عندما يجلب لها في الوقت نفسه الغذاء ودفء الفروة والجسم
وكل راحة شكرتها له . بذلك الحب الذي يشكر به على الراحة ويتعلق
له الكلب بسيدته .

وعبثا أراد الناس قيما بعد أن يستخلصوا من الفتاة هل
منعها الدب آنذاك بأية صورة من الصور أن تبارح المغارة وذلك
بأن يخرجوا على سبيل المثال حجرا أمام المدخل ، كما عرف الناس
من الحكاية أنسان دب أو دب انسان كان يحلو لشيوخ القرية أن
يرووها استنادا الى ذكريات أجدادهم . فقد قيل مثل هذا - ويقال
ان زاعى الكنيسة كان يراه - عن أنه لا محل للتفكير فيما يتعلق
باقامة الفتاة في مغارة حقه مما يأوى اليه الدب ، بل لعل الأمر
يتعلق بركن من تلك الأركان التي يتسلل اليها كتلك التي بناها
القرويون أو الفارون أثناء الحرب الطويلة الأمد في الغابات الشاسعة
أو بالأحرى بشيق حجري / من شقوق الينابيع ثم غادروها فيما بعد
ربما - وهذا ما رآه القرويون - كان لركن التسلل هذا باب من النوع
الذي ينقل حين يمس الدب عند مبارحته المغارة تحت ضغط جسمه
الضخم موضعا بعينه وهو لا يعلم ذلك أنه بدا لهم من المحال الاعتقاد
بأن ليزو تابرت على البقاء مع الدب من تلقاء نفسها ، وقيل كذلك أن

الفتاة وقعت بالتأكد هناك على بعض المواد الغذائية التي كانت مخبأة منسية كجبن الضسآن واللحم المملح الذي كان يحفظ في لفائف من القماش المقطرن ، صوبنا له من الدود والفساد . . . ذلك أنه لم يكن معقولا أن الدب كان يجلب الطعام للفتاة كما تفعل أمهات الحيوان لصغارها بيد أن « أولو » القروي السقاء ذكرهم بالدب الذي جاء في الفجر الى المخبز وأثار الرعب الشديد في قلوب النساء ، وكان « أولو » يملك بندقية - اذ قيل انه ذبح مرة في الغابة فارسا هاربا - فأطلق النار على الدب ، وتخلف من دمه أثر في الكلا .

وذات مرة رجع الدب يهر فلاحظت ليزو أن كتفه مبتلة بسائل يجري . لكن كان هناك أيضا رغيف ساخن ، فلعلقت ليزو السائل الدافئ على جلده ، وجعلت في تلك الأثناء تقضم الرغيف الساخن . ولما لم ينقطع السائل وازداد على الدوام اضطرب الدب وهو يئن مزقت ليزو قطعة من أسمالها وربطت له كتفه ربطا محكما ، ولا يبعد أن يكون الخبز القروي الساخن قد نبه ذاكرتها الى جرح رأت أهل القرية يضمّدونه ، وقد بقي الدب راقدا في المغارة برهة أطول من المعتاد ، فلما خرج في النهاية أضاع الرباط ، لكن الجرح لم يعد يدمى

وأحسّت الفتاة ذات مرة أنه لا بد أن تكون غيبة الدب قد طالت بصورة غير عادية وقدرت ذلك بما أحسّته من جوع شديد بعد أن استنفدت كل ما تبينته أو وقعت يدها عليه من غذاء حولها ، واشتدّ بهتا الجوع وأبدت ليزو في الوقت نفسه خوفا من الخفى من شيء ما يمكن أن يغير نظام الأشياء بالنسبة لها ، فقد بلغ من أمرها أن خيلت اليها قلة الحيلة وخيل اليها الضيق الغابة

بعشى غرابها وقوتها بل خيل اليها مزرعة ذى الرجل الشوها
بأرغفتها وصورها .

وبغته رأت الفتاة نفسها عرضة لضوء اليم ، ذلك أن الشمس
كانت طالعة فى الخارج من خلال أغصان البتولا الجرداء التى تقطر
ماء ، وأن الثلج الذائب كان يبرق حتى انها اضطرت الى أن تغمض
عينها ، لكنها فى الوقت نفسه شعرت بضعف شديد فى ساقها ،
وهكذا جعلت تجر نفسها خلال الغابة المقفرة من الغذاء الى الأرض
لكن السير فيها كان يتعذر عليها وقطع الجليد تنكسر تحت خطواتها
وماء الثلج يبقبى ودجاج الغابة عليها يزعق . لكن فيما خلا ذلك
كان كل شئ ساكنا فلها أن تصرخ مابدا لها .

وتلمست طريق العودة فلم يكن ثم طريق عودة وأقبلت
العتمة ثم لم تلبث أن جن الظلام ، وقبعت عند كتلة حجرية فى
سكون الريح ، ودعكت جميع أعضائها بالثلج لتقاوم التجمد ،
وهكذا مضى الليل فى بؤس ، وفى الصباح الباكر سمعت أجراسا
تدق . وتبينت القرع لناقوس كنيسة تيريكلسن ، فنهضت وأرادت
أن تتبع الرنين . ولأن قواها كانت قد وهنت وكان عليها من جراء
مياه الربيع المتجمعة فى الأرض أن تسلك طرقا ملتوية كثيرة فقد
احتاجت الى وقت طويل مضى حتى خرجت من الغسابة وبلغت
الكنيسة .

وكانت السوق العسامة تقع قبالة الكنيسة وتقف عندها
مركبات الفلاحين فى صف طويل مربوطة الى مربوط الغربات وتبينت
حصان صاحب الرجل الشوها ، الأبيض العجوز ، فاعتلته وزحفت
منه الى دريس العربية وغابت عن الرشد .

واستقيظت على الهز والصياح فرأت وجوها تحلق فيها ،
وكانوا أكثر مما أمكن أن تخصى . وكانت لمبارية أيضا بينهم فلم

تلبث ليزو أن تذكرت عقيقة النار ، ثم اذا صوت مرتفع عميق -
كان الرجال يرفعون له قلائسهم - يطرق سمعها فلم تعد الفتاة
تسمع أو ترى شيئا بعد ذلك فترة طويلة .

وتذكر راعى الكنيسة الفتاة اليتيمة مرة أخرى فأسف أنه
لم يهتم بليزو فى الأعوام الأخيرة . لكن كيف كان ينبغى أن يفعل
هذا وهو شيخ طاعن فى السن . وقد شفق القوزاق زميله فى
هالنبرج ، ولم ينسج راعى الكنيسة الا أن يؤدى مهامه الى جانب
وظيفته ويقطع لذلك مالا ينحصى من الأميال المربعة .

وأمر فى الحال بإحضار ليزو الى الأبرشية وارقادها على زكينة
من القش واحكام غطائها . وأمرت زوجة القسيس بعد ذلك بغسلها
وأعداد شراب سخاؤ لها ، لكن القدمين دهنتا بالمرهم وربطتا ، وكان
لابد أن تطعم كما يطعم الطفل الصغير ، ذلك أنها فى البدء لم
تستطع أن تستبقى فى معدتها شيئا مطبوخا ، وقد خشيت زوجة
القسيس أن تموت كالأرنب الصغير واستردت ليزو قواها مع
الزمن ، وباتت تاكل كما ياكل الانسان وتلبس كالانسان وتجيب
على نحو انساني اذا ما خاطبت ، ذلك لأنها تعلمت أن تسمى بعض
الأشياء بأسمائها وكانت من قبل لاتعرفها . ويقول الناس أنها
أصابته حظا عظيما وأنها جاءت الى الأبرشية عن طريق مغارة
للديبة وأن القسيس سيتكفل أيضا فى حياته بأن يجد لها زوجا
صالحا ، فكأريه أوي الجيرا ، ويساعد فى جهازها ، وآخرون لم
يصدقوها وكافوا يبرون أنها وقعت على بعض « النور » واختلطت
ببعض النهابين من الجنود ، ليكن الجميع كانوا ينهالون عليها
بالأسئلة ، وكان الأطفال يشيعونها بالصنسيخ : « عروس الدب
عروس الدب » !

وذا ان سمعنا بجات ليزو فى أواخر الخريف من الجفيرة اقرأيد

أن تغلب ماء من بئر المزرعة فاذا بالسيد المحترم يقبل راكبا في
سُنْثرة ضيده المرقعة ، وقد رأته في العتمة يخرج مع القسيس من
باب البيت فنادها القسيس اليه وكلفها أن تخكى لسيد الناحية
عن عهد اقامتها بمغارة الدب ، وكان السيد يهز رأسه أثناء حكايتها
ويضحك مزمجرا ويقول : « كذا ، كذا » أو « من يعلم !؟ » ثم
أعطى القسيس في النهاية قطعة نقود نحاسية ليُدْخِرْها للفتاة هذا
الى أنه - على قوله - لا يعرف أن دبا أطلق عليه النار في ناحيته
في تلك الأيام ، لكنه ما يزال ثمة جنود يجوسون خلال الديار
ويحملون البنادق ولا يحفلون بقوانين الصيد ، فلم يكن شيء يعرف
على وجه الدقة .

ثم أشار الى مجموعة في السماء الزرقاء المعتمة فوق سطح
الأرطقيون وقال وهو يضحك ضحكة من انحراف مزاجه : هذا هو
الدب الأكبر ، انظري اليه ، فلعلك نزلت عليه ضيفا . وحين
تكبرين بما فيه الكفاية فلربما تستطيعين أن تهرشي له مرة أخرى
على رقبتة .

فلم تفهم ليزو هذا جيدا ، وركب السيد ثانية وانصرف ،
وتبعه القسيس بنظرة وقال لليزو : « ليصادف الانسان دبة نكول
ولا جاهل في حماقته » أمثال سليمان الاصحاح السابع عشر ،
الآية الثانية عشرة . حين تأتين لتلقى البركة سأؤودك بهذا كجكمة .

وأدخل القسيس في الحال الفتاة في دروس الدين المسيحي ،
فجعلت تسمع عن قدير يولى الناس العناية ، عن واهب للدفء
والقوت عليها أن تحمده وتتفاني في خدمته فتارة يخيل اليها أن
القسيس يعنى بذلك نفسه وزوجه الصغيرة جدا ، وتارة يبدو لها
أن المعنى أحد غيرهما لا تعرفه . وهكذا بقي تفكيرها في الدب الذي
منعها كل شيء ولم يتقاض منها في مقابلته شيئا . إنما الآن فلا بد

لها أن تساعد في المزرعة وتحرس أيضا أبقار القسيس وكانت ستا لكنها قبل الحرب كانت فيما يقال أربعا وثمانين . وفي هذه الحراسة كانت تنادي في الغابة بكل كلمة كانت تقولها للدب واليها بضع كلمات أخرى مستعطفة علمها القسيس اياها ، بيد أن الدب لم يشأ الظهور .

وكائنا من كان من تقابله كان يذكرها بالدب بالأسئلة أو الفكاهات فكان يورى ذو الرجل الشوهاء يقول لها : « عمى صباحا يا عروس الدب . بلغى سلامى الى عريسك » وكانت مارية ذات الرجل الشوهاء تشيعها بصياحها : « أتذهبين قريبا الى مغارة دبك تكسلين هناك ؟ » ولاشك أنها لم تعد تجرؤ أن تمس الفتاة بأذى منذ أن بات مقامها فى الأبرشية .

واذا تلقى القسيس زوارا استدعيت ليزو الى الحجرة الكبرى . وهنا كان للضيوف أن يسألوها وعليها أن تجيب ، هنا كانت تقف بالباب فتؤمر بشدة أن تقترب وأن تفتح فاهها ، لكن ما الذى كان ينبغى أن تقوله حينئذ ؟ فلقد طالما أبدت وأعادت هذا حتى بدا أنه يصبح بالتكرار أسوأ وأبعد عن الحقيقة ، وسيان ضحك السامعون غير مصدقين أو قال صياد دبة مسن ان مثل هذا مما يحدث وان ندر ، هنا كانت ليزو تشعر جليا أن ما تعيش فيه انما هو زور وبهتان والا لما أمكن أن يحدث أن يبدو لها أن عهد الدب السعيد سيء بعيد عن التصديق ، وقد كانت تلقى عليها أسئلة كثيرة لم تفهمها ، ومن ثم كان يرتج عليها وتلاحظ أنهم غير راضين عنها ، وأنه لم يعد شئ صحيحا .

وفى العام الثانى لعهد اقامتها عند القسيس قدم سيد غريب ، فكلفت ليزو أن تغسل يديها ورجليها لتتوجه بعد ذلك الى الحجرة الكبرى كى تعالين وتسال ، ثم تحدث القسيس وزاثره

بالألمانية فلاحظت أن الحديث يتناولها وأحست ضيقا لا يحتمل وهما . فلما عادت ثانية الى الفناء ألفت هناك سائس الغريب واقفا مع الخيل ، وكان رجلا أشيب الشعر يمسك بغليون فكان عليها أن تجيبه هو الآخر على أسئلته ، وكان يستمع اليها غير مكترث ثم بصق وقال :

« لقد لاقينا نحن أيضا ، سيدى وأنا ، دبا أمس ، وكان ذلك فى يركنكروج اذ مر بعض النور من هناك يسحبون دبا من سلسلة متجهين الى شقار تسنبرج نحو السوق السنوية ، وكان حيوانا ضخما قالوا انهم لقوا عناء فى تدريبه لأنه تجاوز السن . وكانت له ندبة من أثر طلق نارى بكتفه وبقعة بيضاء برقبته ، ولا يعهد ذلك كثيرا فى الدببة .

فسألت ليزو : « وأين مشقار تسنبرج ؟ » .

قال السائق : « من هنا ، رأسا ، وعند قاسر هوف الى اليمين . والطريق من هناك مطروق » .

فلما خرجت ليزو من دفء الحظيرة ، كانت نجوم الخريف تعلو الأبنية السوداء هائلة باردة تبرق ، وكان كلب الفناء ينخر نصف نائم فأرعشها البرد وضغطت كسرة الخبز المصرورة فى إحدى الخرق على صدرها كأنها تستدفئ بها ، ورفعت بصرها فألقت الدب الأكبر يقف فى الحديقة فوق شجر التفاح فى لمعان ثابت ، فنظرت اليه ليزو دهشة وخطرت ببالها تلك الكلمات التى فاه بها السيد المحترم وجمعت اليها أقوالا أدلى بها القسيس فى درس الديانة المسيحية كالتى يلقيها فى عظة يوم الأحد عن السماء .

ولما انعطفت عند فاسر تذكرت « أولو » غاضبة اذ اعتاد أن يقول لها غامزا : « لقد رميت حبيبك فى جلد بواحدة حارقة مصمية »

الفور بسحر ساحر الى أرض الدبية حيث الوفرة والهدوء وكل
كفاية ، وحملت في الحيوان الفظ الذي يحمل الكمامة على فمه
والندبة على كتفه والسلسلة الثقيلة مثبتة في طوقه ، يظهر منه
جزء من البقعة البيضاء التي تسم رقبتة ، فتطقت بالكلمات القديمة
تناديه ، وكان الدب يدور في بطن يمينه ويسرة وعيناه الكدرتان
تتجاوزان عديد الناس .

ودفع رجل مسن ليزو في جنبها وهو يقول : « ايتها الفتاة
الغبية ، هل شربت خمرًا ؟ » وعوى من هناك في اللحظة نفسها
صوت مارية ذات الرجل الشوهاء غاضبة يشبه عواء جراء الذئب :
« ايه ، أنت ياعروس الدب ، انتظري فقط فسأردك الى القسيس » .

وسرت حركة بين النظارة وكف الطبال . والتفت كثيرون الى
ليزو . ووقف الدب وبدأ كما لو كان يبغى الاستلقاء ، لكنه حدج
مدربه بنظرة واجفة كأنما يريد أن يستوثق من أنه لن ينزل به
عقابا ، وأخيرا ارتدى على الأرض .

فصاحت ليزو صيحة صارخة الانفعال ، وقفزت تتعلق برقبة
الدب ، وضغطت رأسها على جلده الدافئ ، ومدت يدها الى بقعة
عنقه البيضاء ، فأتى الدب بحركة انتفاض يمكن أن تعبر في الوقت
نفسه عن الغضب والذعر والرغبة في دفعها عن نفسه ، ثم دمدم
حانقا وضرب ليزو بكفه الأيسر على ظهرها ، وفي الوقت نفسه هوت
يمناه على جمجمتها فحطمتها تقريبا .

اللحظة

« Der Augenblick »

أسماء الشخصيات :

Murat

مورات

General Loison

جنرال لوازون

Napoleon

نابليون

Lapie

لابي

von Sshallheim

فون شالهائم

« توجه الى سلسلة المخافر الأمامية ، ألا تعلم أن الكولونيل سيزلافين ومشايعيه يحازون الحد الجنوبي للناحية ؟ »

واختفى نابليون ومرافقوه فى البيت وهم يكادون لا يعرفون فى طى فرائهم ، وابتعد لوازون ممتقع اللون. ومعه ضباط أركان حربه . وكان أفراد سرية الحرس يلوحون بأذرعهم من حولهم ابتغاء التدفئة ، وعبثا كانوا يفعلون لأن الصقيع القارص لم يكن يرحم .

واقترب الضباط بعضهم من بعض ونظر لابی من الواحد الى الآخر ، ثم قال بصوت منخفض يكفى لأن تسمع الجماعة كلها كلماته : « الآن أيها السادة دقت الساعة » . وفهمه كل منهم فقد عرف كل أية ساعة دقت وأية لحظة حلت وأى عمل يطلب . وقد وثق لابی بأن الفكرة لا يمكن أن تكون قد تركت أحدا منهم دون أن تداعبه ، ولكن من لم يكن الى تلك اللحظة قد جزؤ على فكرة أو كلمة قد رأى الامبراطور الآن يتجه مسرعا نحو الغرب ويخذل الجيش — حطاما وفلولا .

وقال أحد قادة السرية متجهما : « لا يلومن هذا الرجل الا نفسه » وكانوا اذ ذاك اذا تحدثوا عن الامبراطور نعتوه « بهذا الرجل » .

فأجابه آخر : « حقا . وهذا أيضا على الأخص . لو كان قد دعا الجنرال وأركان حربيه الى تناول طعام الافطار معه لأصبح الأمر محالا » .

وسأل جندى من بييمون : « والأنفار » يشكون ؟ انى لأثق بنفسى — والأمور كما هي اليوم — أن أقود الحرس الى مثل هذا المشروع .

فأمن الجميع كل على هواه ، وعكفوا على التشاور فى التنفيذ .

« أيستطيعون رؤيتنا ونحن قادمون ؟ »

قال لابی الذى كان عليه مايؤديه فى هيئة أركان حرب الفرقة :
« كلا . فالحجرة التى أعد فيها لتناول الطعام تقع الى جانب
الحديقة » .

« والمملوك الذى فى خدمته ؟ » .

سيكون فى الغرفة المقابلة ويكون الباب مخفورا ، هذه الغرفة
ليس لها نافذة تطل على ناحيتنا .

وأية مخارج لحجرة الطعام على ذلك ؟

مخرج خلفى على ما أعتقد . وهو يؤدى الى الدهليز ، ومن
هناك الى المطبخ .

فاذا نفذ كل شئ فسينضم الجانب الاكبر من الفرقة ان لم
يكن كلها ، ويكون على الرأس ثلاثة من البروجية راكبين يحملون
أقمشة بيضاء وتبدأ المسيرة الى سيزلافين بالعزف الرنان والأعلام
المرفرفة ، ويتولى القيادة أحد السادة الألمان ليكون الأمر أوفى
بالغرض ، فيعلن الى سيزلافين أنهم تحت امرة الامبراطور اسكندر .

وكل ما ينقص هو حل بعض المسائل التفصيلية ، فاتفقوا على
الخطط التالية : تقتحم سرية البيت ، وتحتل أخرى المخرج الخلفى ،
وهذا لا يكون مع ذلك الا فى اللحظة الأخيرة ، لأن تقدمها سيحفظ
من النافذة ، ويمكن أن يحمل هذا الرجل ومن معه على الهرب .

ويصرع المملوك وهم فى حجرة الطعام ، وتسرع جماعتان فى
الحال الى باب الغرفة الخلفى لسد الطريق على من يريد الهرب ،
وترابط من هاتين الجماعتين واحدة على الجانب الداخلى من الباب ،

وتندفع الأخرى الى الدهليز لتمنع أذى من لعله يتدخل من الجند الذين يقومون بالخدمة أو من خدم المطبخ ، وهنا وفي حجرة الطعام قبل كل شيء مع ذلك يجب أن يسرى المبدأ : من يهجم بالدفاع عن نفسه يطاح رأسه بالسيف .

« ومن لا يحاول الدفاع ؟ »

وجه هذا السؤال ملازم ثان من أهل نابولي فلم يلق عليه جوابا ، وقيل بسرعة : « السنكى والسيوف هي الأسلحة لأن البارود والرصاص يحملان النذير فوق أنهما يعرضان الجميع للخطر » .

ولعله قد كان منهم من يرى في هذه المشاورات مضيعة للوقت ، لكنها كانت ضرورية ، لا لأن كل طرف كان يجب أن يتدبر بعناية فحسب ، بل لما هو أكثر من ذلك ، لكي يتاح الوقت الكافي لأفكار الرجال كي تعتاد هذا الأمر الجلل .

وكان إلى الآن لا يقال إلا « المرء » فالآن بات السؤال من بالاسم يقوم بتنفيذ الأفعال فاقترح لابی أقدم رئيس للكتيبة في الخدمة ، وكان السيد فون شالهايم الكابتن في الخدمة السيكسونية الفاييمرية . وسأل شالهايم مرتبكا : « وأنت بالذات يا حضرة الميجر بوصيفك مدير المؤامرة ؟ »

فأجاب لابی : « يجب أن يكون المنفذ رئيس كتيبة ، أما أنا فلا أمر لي على كتيبة ليس لي أنفار أعرفهم جيدا وأطمئن اليهم وعلى الأخص في مثل هذا الأمر - كما يطمئن أى رئيس كتيبة إلى جنوده » .

ولم يعارض شالهايم أثناء التشاور . لكنه الآن وجدج الأرض التى تغطيها الثلوج برهة بنظرة غارقة في أفكار سوداء : وأخيرا

وسأل لابی : « كل شيء واضح ؟ أعند أحد من السادة سؤال ؟ » .

فى هذه اللحظة ظهر كولانكور تحت طنف الأعمدة عارى الرأس ، طارحا فروه على كتفيه ، وصفق بيديه وصاح برما نافد الصبر : « حسن . لماذا لا نرحل ؟ » .

وأقبلت الزحافات على الأثر ، وهرع كولانكور عائدا الى البيت ، وجرى الضباط الى كتائبهم وأتباعهم ، وبينما الزحافات تنطلق انطلق الهتاف مرة أخرى : « ليحيا الامبراطور » .

التوأمان الفرنسيان

« Die Zwillinge aus Frankreich »

أسماء الشخصيات :

Jean-Philippe

جان - فيليب

Annette

انيت

Fraenkisch-Crumbach

فرنكش - كرومباخ

Creutzermann

كرويتزerman

فى عهد الثورة الفرنسية ظهر فى فرنكش - كرومباخ وفى عز الصيف ، مسنان ، رجل طاعن فى السن ، أبيض الشعر ، ينادى على حرفته بلهجة غريبة ، وكان يملك عربة « كارو » يجرها كلب قوى ، وكان فوق العربة مسن آخر وأدوات وبعض حاجيات تافهة ، هذا الى طفلين صغيرين يقبعان فوق كومة من القش يشبه أحدهما الآخر ويشبهان الشيخ شبها كبيرا ، وهما غلام وفتاة فى ثياب رثة .

وفجأة انكفأ الشيخ وهو يزاول عمله وأسلم الروح ، فبحث الناس فى ملابسه وفى عربته فوجدوا مبلغا متواضعا جدا من المال ، وعلى العكس من ذلك لم يجدوا شيئا مكتسوبا ، ولم يستترع الانتباه الا ثلاثة أشياء فحسب ، صليب تعميد أثرى من الذهب كان يحمله الغريب على صدره العارى ، وحق سعوط ، وخاتم للختم بقص من العقيق ، وهو على شكل تاج له تسع أسنان ، وكان هذا الخاتم فى كيس للنقود ولم يكن أيضا مما يناسب حرفة الرجل المسن أن يحمله فى يده ، لكن تقاطيع وجهه كانت من الوقار بحيث يطمئن الجميع فى الحال الى أنه مالك مثل هذا الخاتم .

وكان لوجهى الطفلين أيضا مثل هذه الملامح النبيلة ، ويبدو عليهما أنهما توأمان . وقد أبدى أن الميت جدهما وسميا نفسيهما جان - فيليب وأنيت وكانا يجهلان اسم أسرتهما ويتكلمان ألمانية ركيكة ، وقد افترض الناس أن الجهة التى كان ثلاثتهم آتين منها

هى الجنوب لأنهم كانوا يتجهون نحو الشمال ، ولم يكن مؤكدا
فى أى طريق والى أين ، وقد خلص من أقوال الطفلين أنهما كانا
يعيشان مع جدهما فى مدينة لم يستطيعا أن يسمياها ، ثم لاح
لهما أن جدهما تلقى ثانية بعد أمد طويل نبأ من أبويهما على شد
الرحال ، وقد افترض الناس أن أبويهما اللذين فرا من فرنسا
بعد أن هاما طويلا على وجهيهما وفقا الى مأوى وعمل فى مدينة ما
من مدن الشمال ، فكانت الأسرة بسبيل أن يتجمع شملها من
جديد .

ولم يكن سادة قصر تلك الناحية يعيشون اذ ذاك فى
فرنكش كرومباج بل يقيمون فى ملك لهم فى بوهيميا آل اليهم
بالميراث ، فبات من اختصاص راعى الكنيسة العناية بأمر الطفلين،
وبينما مراسم الجنازة تؤدى حسب الطقوس الانجيلية ، فى
حضرة الكثير من علىة القوم ، كان التوأمان بعد أن غسلتهما زوجة
القسيس ومشطتهما واقفين أمام القبر يمسك أحدهما بيد الآخر
ويتحملان هادئين نظرات القرويين العديدة المتركة عليهما ، وقد
سمح لهما بعد ذلك بأن يبقيا فى بيت القسيس بضعة أيام ، غير
أنه كان للقسيس أحد عشر طفلا فهو يكره أن يصبح له ثانى عشر
وثالث عشر . وكانت زوجة القسيس تتكلم القليل من الفرنسية ،
لكن التفاهم لبث غير كامل ، ومن ثم أبدت أخيرا أن مايتكلمه
الطفلان يمثل لهجة أخرى .

وأبلغ الأمر فى تلك الأثناء لولاة الأمور كما ينبغى ، فجاء
القرار بأن يبقى الطفلان فى الناحية فى الآونة الراهنة ، وأن
يعاملا معاملة اليتامى من أبناء الناحية الذين لا يملكون شيئا ،
وستصل التعليمات النهائية من ولادة الأمور ، أما الأشياء الثمينة
التي وجدت فعلى العمدة أن يحافظ عليها .

وكان عمدة البلدة اذ ذاك صاحب حانة « الحمل » فرتب أن يلقي الطفلان المأوى بالتناوب في دائرة بعينها من البيوت ، ولم يوجد من كان خليقا بأن يكون على استعداد لايواء الطفلين في وقت واحد ففصل بينهما ، واذا كان الناس يتوقعون سرعة البت في مصيرهما فقد كان مكان اقامتهما يغير في فترات قصيرة ، ثم أطيلت هذه الفترات لأن الأوامر التي كانت تتوقع أبطأت ، وأخيرا بدا أن الأمر قد طواه النسيان ، اذ ظلت الاستفسارات التي كان العمدة يوجهها الى جهة رياسته بلا جواب ، وفي النهاية جعل الطفلان يتنقلان كل ثلاثة أشهر من يد الى يد فكان نصيبهما تارة حسنا وتارة سيئا ، لكنهما في العموم كانا يعاملان معاملة محتملة ، فكم من سيدة عطفت عليهما في المناسبات ودست لهما في فمهما ما لذ وطاب ، ذلك أنه كان يستدر العطف عليهما فكرة أنهما كانا فيما بدا من محتد كريم ، وأنهما مع ذلك فقد اسمييهما وأبويهما ، ووجد آخرون بلاريب نوعا من الترضية في هذا ، ولو كان التوأمين عند وصولهما الى فرنكش - كرومباخ أصغر مما كانا بسنة واحدة فقط لاندمجنا في الراجح في أسلوب حياة تلك الناحية اندماجا تاما ولبهتت ذكرياتهما ، لكن هذه التذكريات كفت - وان لم تكن من القوة بما فيه الكفاية - لأن تخلع على الماضي اسما ولأن تنشط بالذات في الأخ والأخت مقاومة الاندماج التام ، وقد كان جان-فيليب وأنيث يعيشان بين أطفال الناحية ندين لهم . ومع ذلك كان وعيهما واضحا لاختلاف نوعهما ، وكان وعى الواحد يتقوى هنا بوعى الآخر ، ولعله كان يتراخى لو لم يذهب الى أبعد مما يجب ، فانهما كانا يجتمعان بعد انتهاء العمل وفي أيام الأحاد بمجرد أن يتيسر ذلك ، وبقدر ما باتت الألمانية - لغة أهل الناحية - سهلة مع الزمن عليهما ، يتكلمانها بطلاقة ، كانا فيما بينهما يتابعان التكلم باللغة الفرنسية ، وقد حاول أطفال

الناحية فى سخرية أن يقلدوهما فى نطق هذه اللغة غير المفهومة .
لقد كانا يتحدثان فيما بينهما عن الجد وعن كل ما كانا
لا يزالان يذكرانه عن الحياة السابقة ، وهكذا ظل هذا باقيا فى
ذاكرتهما ، لكنهما كانا يتحدثان على الأخص عن أبويهما وكيف
يريدان الخروج فيما بعد للبحث عنهما ، ونم يكن مناص أيضا
من أن يريا فى أهل فرينكش - كرومباخ شيئا يشبه السجانين ،
وان لم يكونوا من الفاسدين . كانا يفكران : « لقد كنا فى طريقنا
الى أبويننا فاحتجزونا ، ونحن نريد المضى فى طريقنا وهم
لا يدعوننا نمضى » . ولم يجد معهما أن جهد الناس فى أن يبينوا
لهما الأسباب ، اذ ماذا يفعل الأطفال بالأسباب ، لقد كان يحدو
أهل الناحية تصور غير أكيد بلاريب ، بأن سلطة عليا مشغولة
على الدوام بالتحرى عن أبوى التوأمين ، لكنه لما لم يحدث شيء
زاي لهم أيضا هذا التصور بعد أن زایل كلا الطفلين الغريبين من
أمد .

وكان هذان كلما نمت بصيرتهما مع الأيام يريان أن الناس
يتعمدون استبقاءهما بوعود خلافة : لكن الدنيا كانت تبدو لهما
أحيانا ماتزال أوسع من أن يجرؤا على الخروج خفية ، وليفما
اتفق ، ويشرعان فى البحث عن الوالدين - وكانت ماتزال فى
تلك الأثناء عقبة أخرى تعترض سبيل مثل هذا القرار ، وذلك
أن الطفلين كانا يعلمان أنه لا يجوز لهما مبارحة الناحية دون
الصليب والخاتم وحسب السعوط ، فقد كانا لا يريان فى هذه
الأشياء مجرد ملكهما الوحيد الذى لا يقدر بثمن فحسب ، بل كذلك
طلاسم ورهائن وشهادات ، نعم يريان وطنهما الحقيقى ، وكانت
هذه الأشياء مقفلا عليها فى مكتب العمدة ، وكانا يعرفان
« الدرج » الذى يحتويها ، فاذا ماجاء أحدهما مرة الى حجرة جلوس
العمدة نظر الى المكتب يحدوه افتخار وتحدوه الهيبة والاشتفاء .

ولم يغير من السنين من هذه الأحوال الا قليلا ، وعلى عادة القرويين تلب الأطفال بالعمل مبكرين لا سيما فى حراسة الأبقار والماعز ، وكانا يعدان أيضا من المهرة فى قنص « الحلد » بالنصيدة بصورة غير عادية . ويكسبان من وراء ذلك أحيانا أجرا زهيدا . أجل لقد كانا أحيانا يعفيان من أجل ذلك من تأدية أعمال أخرى ، ذلك أن تلال « الحلد » الكثيرة كانت تسبب فى المراعى عقبات تعوق الحصاد كثيرا . وعندما عرضت المناسبة دخل جان - فيليب وأنيت المدرسة لأمد وجيز ، فبقيا أجهل مايكونان ، وعوضا مثل هذا النقص بمكر يشبه مكر حيوان الغابة وسعة حيلته ، ذلك أنهما كانا يشبان دون رعاية ، فكان لابد لى يتعلما أن يساعدا نفسيهما وألا يضعا ثقتهما فى انسان أو فى هيئة . وعدم اقامتهما فى مكان واحد وغشيانهما بيوتا كثيرة وعيشتهما فى أحوال عديدة نشأ كله فيهما ملكة الملاحظة وانفصل ، وليس هذا من دأب من كان فى مثل سنهما ، وهى ملكة لا تنفصل مع أسلوبها الحرك المقدام الذى يجتذب اليه كل جديد برشاقة عن توخى التغير ، وأحدهما فى هذا شبيه بالآخر كما هو شأنهما فى كل الأمور الأخرى سواء أكان ذلك لتوأمتهما أو لأسلوب حياتهما الواحد وخبرائهما الواحدة واستثنائهما الواحد من سائر المقيمين فى الناحية .

ان حكايات رودنشتاين التى كان الناس يتداولونها لم يكن لها فى كل الأزمات نفس التوكيد . لكنها كانت اذ ذاك يتناولها الكلام الكثير .

فكان المجرى العفارىتى - كما وصف - يشير مرارا وتكرارا الى سنين سادها الاضطراب ، والى انتقال الفرنسيين عبر الرين والى اضمحلال الامبراطورية الرومانية وتداعيتها . وكان آخرون يعنون بلا ريب أن مثل هذه الحكايات لا تقوم على أحداث غشيتها

وكانت آنيت تقيم اذ ذاك عند العمدة ، كان عليها أن تساعد
فى حظيرة الماشية وفى الحديقة ، وفى أيام الآحاد تخدم الضيوف
فلما أقبل المساء ساق جان - فيليب الماعز الى الحظيرة ، وجعل
يتحرق الى أن يقص على أخته ماجد من جديد .

ولم يكن قد بلغ الناحية بعد حين قفزت أخته من بين
الأدغال وهى تنهج . فأمسكت به من كتفيه وصاحت : « أنت ..
آه يا جان .. فيليب ، لابد أن نرحل ، لابد أن نرحل » .

ويعرف المرء تلك الحركات المألوفة ، تلك الحركات المتراوحة
التي لا يمكن تفسيرها والتي تحدث أحيانا فى دوائر المصالح
الحكومية بعد ركدة طويلة أوحى من قبل بأنها ستكون نهائية .
فقد وصل فرينكش - كرومبساخ على حين بغتة وعلى غير انتظار
اطلاقا ، كما لو كان ملف منسى يحوى أوراقا قد ظهر ثانية فلابد
من انجازه - وصل أمر بتسليم خاتم الختم وحق السعوط وصليب
التعميد الى جهة قضائية بعينها فى دار مشتات ، ولعل هذا كان
دلالة على أن شيئا ما قد حدث ، لعله أن أبوى التوأمين اللذين
يبحثان عن طفليهما اهتديا فى جهودهما الى جهة ما تابعة لنزيل
ناحية من النواحي ، أو - كما قيل من عهد قريب - على جهة
رسمية تابعة للفراندوق ، وانه يصبح الآن فى انتظار تعليمات
حاسمة .

وقد تكلم العمدة فى هذا مع القسيس فى عصر يوم وهو
يفرض كل الفروض ، وكان قد قصد اليه ليباحثه فى أمر يتعلق
بصندوق الفقراء .

وكانت النافذة مفتوحة وآنيت تنقى الحديقة من الأعشاب
الضارة ، فلم تفهم كل ما قيل ، لكنها فهمت أنه لابد من نقل
الأشياء الثمينة الثلاثة - فيما تظن - الى حيث لا يمكن رؤيتها

ولا الوصول اليها بعد الآن . وقد فتح العمدة درج المكتب وأخرج الأشياء وأراها القسيس مرة أخيرة فوصوت آنيث من خلال النافذة وهي توارى وجهها وراء العرائس الخضراء .

وأراد القس الانصراف ، وأعاد العمدة الأشياء إلى موضعها لكنه لم يوصد الدرج ، والظاهر أنه كان يفكر في العودة لأداء عمل كتابي آخر ، وخارج حينئذ لتوديع القس فدخلت آنيث وسحبت الدرج وتناولت النفائس وهي تكاد لا تدرك ما فعلت ، فلما عاد العمدة كانت قد رجعت أدراجها إلى الخارج ، وقد عاد العمدة بزائر آخر تاجر ماشية وحبوب من رايشلنرهايم طالما عقد معه الصفقات ، فالآن تسمع آنيث كيف أوصد الدرج فلعله قال لنفسه أنه حسبه اليوم ما كتب ، وأخفت آنيث القطع بين أدغال « القريص » فلن يطلبها هناك أحد . وسيان عندها هي أن تنجو أو أن يحرق « القريص » يديها .

قصت هذا كله على أخيها وختمت قصتها بما بدأتها به :
« لا بد أن نرحل . لا بد أن نرحل » .

وأراها القطعة الفضية . وبدأ أنه ليس مجرد الصدفة الذي جمع بين أمرين غير عاديين ، وعكفا على التشاور وهما منفعلان وتحت رحمة الأقدار .

وتبيننا الخطر ، فالشيء الوحيد الذي يملكه يراد انتزاعه منهما ومعه أملهما الوحيد ، وكل ما يصبوان إليه ، فتلك القوة الماكرة التي لا تفهم والتي عبر عنها ما يجري في الدواوين صاحبة الأمر والنهي والتي عقد معها أهالي الناحية محالفة شريرة ، تريد أن تحول بينهما وبين الالتقاء بوالديهما ، ويريدون أن يجعلوا منهما طفلين يتيمين من أطفال فرنكش - كرومباخ ، وأن يدعوهما العمر كله في هذه المرتبة .

وسرعان ماعقدا الرأى على مايفعلان : فعليهما أن ييارحا
الناحية هذه الليلة على أن يبدآ الهرب الحقيقى فى انفجر ، أما
ماين ذلك من وقت فينفقانه فى التنقيب عن الكنز . وعليهما أن
يأخذا معهما مصباحا وفأسا وبلطة وبعض الزاد .

ووفقا الى كل شىء ، فلم يبق على حلول الظلام طويل حتى
كانا فى طريقهما الى رودنشتاين .

وكانت الريح تهب من الخرابة فوقفت آتيت واستنشقت
الهواء ، وقالت : « انى أشم رائحة دخان فلابد أن تكون هناك
نار » .

فأجابها جان - فيليب : « وأين يكون ما يحترق ؟ ، لكن
حقا انى أحس طعمه أيضا » .

وتسللا محاذرين وهما يكادان لا يجرؤان حتى على الهمس ،
فلم يعد ثمة شك فى أن نارا موقدة تستعر فى الخرابة . ولم يلبث
أن اعتقد الأخوان أنه يمكن أن يكون هناك منقبون عن الكنز .

واقتربا من الخرائب فى خط منحني آتيين من الغابة ، فسمعا
أصواتا سرعان ما آنسا على أثرها ضوء لهب . وكان آتيا من
ناحية مكان النار الذى كان قد وقع عليه جان - فيليب قبل ذلك
بيوم .

ووقف الطفلان وتشاورا فى خفوت فلم يلبثا أن اتفقا ،
فلابد أن يعرفا مايجرى هناك وعليهما أن يتسللا كل من جهة ،
ووضعا أدواتهما عند ركن البرج الجنوبي وافترقا . واتفقا على
التلاقى فى الموضع نفسه فتسلك آتيت الطريق المستقيم ويعرج
جان - فيليب فى قوس من حول القصر .

ولم تلبث الأصوات أن انقطعت عن سمعه ، ولم يعد كذلك
يأنس من النار شيئا ، لكنه بقي مع ذلك واثقا من وجهته ، وجعل
يتسلل ويزحف بين الأدغال والأنقاض حتى وصل الى فناء القصر ،
فاذا به يسمع الأصوات من جديد ويرى بين الفينة والفينة ضوء
النار الأحمر ينير القمة ، وأخيرا بدا حائط بينه وبين الناس الذين
يصطلون .

فتسلق الحائط وأطل من أعلاه على فناء القصر ، وعلى النار
والرجال الذين كانوا يرتدون لباس القرويين ، وأحصاهم ثمانية ،
وكان فوق النار قطعة لحم مشكوك في السفود ، وإلى جانبها كومة
أشياء من كل نوع مصرورة في أغطية . وكان الرجال يحتسون
بالدور من قدح مرتفع من الفضة له مظهر كنائسى ، وبين الحين
والحين يقطع أحدهم شريحة في سمك الأصبع من لحم الخنزير ،
وكان بجانب بعض الرجال غدارات ومع البعض الآخر زقل ثقيلة .
وكان أحدهم يمسك ببندقية قائمة ، وكثيرا مارأى جان - فيليب
بحانة « الحمل » سكارى فسرعان ملاحظ أن المرابطين فى نشوة ،
وكان مايزال يعدمهم من المنقبين عن الكنز وقوى هذا الاعتقاد أنه
رأى شيئا شبيها بكوم من المال جعل منه أحدهم كومات صغرى .
ولاح أن هذا كان يمتاز عن البقية باعتبار خاص ، فقد كان يتكلم
بصوت مرتفع خشن وكان على وجهه دمغة لهيب حمراء كأنما لطمته
على خده يد نارية .

وحملق جان - فيليب مسجورا فى هذه المغامرة البراقة ،
وفكر فى أخته وهل تحب هى أيضا أن تكون شاهدة على منظر
كهذا ، وجثم كالنسر بين الحجارة يعلو ثمانية رجال يزاولون عملا
محفوفا بالأسرار يخفيه الليل الاليل ، وهو الآبق من عمله السائر
فى طريقه الى الحرية وإلى ذويه ، والرجال الثمانية خالو الذهن
من وجوده . أجل لقد كانت القطعة الفضية هى البداية ، فكان

فى يده مال من منال الكنوز ومحيط المحظور والمغامرات والمشروعات الخفية ، وهو من الآن فصاعدا سياتمر بأوامر هذا العالم الجديد .
وكان وضعه غير مريح فهم قليلا الى أعلى مستندا الى الحائط .
وماكاد يفعل حتى انهار السند تحت يديه وانزلت قدماه وهوى الى الأرض . وتدحرجت الحجارة وانطلقت صيحة رجل من هؤلاء الرجال ورنّت صيحات أخرى .

وكانت الأغصان قد لطمت وجهه ويديه فألمته ، وشعر بالأرض تحته وتبين أنه لم يصب بأذى ، وأراد أن يشب لكنه لقي عناء فى التخلص من الأدغال المعتمة . وهنا أحاطه ضوء نور فاذا رجلان يقفان قبالة ، وسلط أحدهما على وجهه شعاعا ثم أمسكا بخناقه وجراه من حول الحائط على نار المربط .

وكان الجميع قد هبوا من أماكنهم والرجل المدموغ بعلامة اللهب قد لثم وجهه بقناع أسود لكن الغلام عرفه من قامته ولباسه ، وجعل الرجال يتكلمون عن جان - فيليب فى غضب ، ويخسّط بعضهم بعضا ، وينحنون على أنفسهم باللائمة لأنهم لم يقيموا حارسا . غير أنه ظهر أنهم لم يكونوا يثقون بعضهم ببعض ، فلم يرغب أحد منهم عند تقسيم المال . وقال أحدهم : « أليس هذا هو الفرنسى الصغير ؟ » .

وسأله ذو القناع الأسود : « ماذا كنت تبغى هنا ؟ » وكان يتكلم عندئذ بصوت منخفض ولا يعبر صوته عن كثير ، ومع ذلك فقد جعل جان - فيليب يرتعد من التهديد المكبوح الذى تنطوى عليه هذه العبارة ، فتلعثم وأجاب جوابا مضطربا قائلا انه لم يفكر فى سوء وانه لم يرد سوى البحث عن كنوز يودنشتاين .

فلم يصدق أحد بل تدانت رؤوسهم وجعلوا يغطون .
فحملق جان - فيليب فيهم وبدأ له كأنما يتكلم أحدهم فى
صالحه ، وكان رجلا ربعة قصير القامة ذا لحية حمراء مدببة وعينين
واسعتين جاحظتين .

واستمر الأمر برهة على هذا المنوال ، بينما كان أحد الرجال
قابضا على ذراع جان - فيليب . ثم عاد الجميع اليه ، وسأله
ذو القناع الأسود بصوت هادئ : أيعتقد أنه يستطيع أن يتعرف
عليهم اذا رآهم ثانية ؟ ولم يكن جان - فيليب يعرف ماذا ينبغى
أن يقول ، كذلك لم يكن يشعر بأن لهذا السؤال ولجوابه أهمية
كبيرة ، فجعل ينظر اليهم من الواحد الى الآخر .

وأعاد ذو القناع سؤاله ، فبدأ للغلام كأنما يريد الرجل
المقنع أن يعطيه إشارة ما اذ حرك رأسه قليلا وغمز بعينه اليسرى ،
لكن جان - فيليب لم يفهم قصده وكان أيضا يخيل اليه أن ماحدث
هنا لم يكن حقيقة واقعة ، فالحركات الخرقاء الهوجاء لأناس مغرقين
فى السكر ، والقدح الفضى والنار الموقدة بين الأنقاض السوداء
والشجر والأدغال كل هذا بدا له حلما من الأحلام ، ولا بد أن
يجد نهايته فى لحظة عاجلة .

وخطر له فى الوقت نفسه أنه قد يكون لديهم مايكلفونه به ،
ومن ثم سألوه ماسألوه ، وقد يكون ذا نفع له أن يقول نعم ،
فقالها .

فقال الرجل المثلث : « اذن لا فائدة . اذن لا يصح أن تبقى
على قيادة الحياة » ودمدم الرجال وتكلموا كرة أخرى مع بعضهم
البعض ، وتطلعوا الى أعلى وتسلق أحدهم فوق صنوبرة حتى اختفى
فى الظلمة . وتقدم ذو اللحية من جان - فيليب وقدم اليه القدح
الفضى وقال له : « يجب أن تحتسى كثيرا فيهن عليك الأمر »

وأراد جان - فيليب أن يشرب ، لكن أصابعه ارتعشت حتى كاد لا يستطيع الإمساك بالقدر الثقيل ، وغص بالنبذ الذي لم يعتده . وجعل يسعل ، وهكذا لم يستطع أن يفتن إلى ما أسره إليه ذو اللحية المدببة ، ومع ذلك فقد بدا له أن ما قاله كان خيرا . ثم تحول ذو اللحية المدببة ورفع حبلا وعقد خية فيه .

ونادى الرجل من أعلى الشجرة . وانحنى من فوق إلى تحت زانة صغيرة تقوم قريبا من شجرة صنوبر وتناول رأس الزانة بعض آخر وأمالوه إلى الأرض ، ووضع أحدهم الحية حول عنق جان - فيليب ثم ربط الحبل في الزانة ، وقيد آخر في الوقت نفسه يدي الغلام . وقال ذو القناع : « هب » . وترك جان - فيليب والزانة فانطلقت إلى أعلى وطواها الظلام ، وشعر جان - فيليب كيف شقت الأفرع جلد وجهه فسال دمه ، لكنه كان قبل أن يطلق الرجال الزانة قد جذب قدميه وثبتهما على الشجرة في زاويتي غصن ، وبهذه الصورة لم يتدل بل وقف على الزانة مقيدا بلاريب .

وأراد أن يصرخ وأن يولول ، لكنه ضبط نفسه ولم يند عنه صوت . وجعل قطاع الطرق يحزمون حاجياتهم جميعا ، حتى الشواء انتزعوه من السفود ووضعوه في غطاء ، ثم أخدمت النار ، وبارحوا المكان ، وبات كل شيء عندئذ معتما ساكنا .

ونادى جان - فيليب بصوت خافت : « آنييت » . فردت عليه قائلة : « ها أناذا » . وكان صوتها مضطربا . ثم أجهشت بالبكاء ونشجت ، ولم تشل الدموع عزيمتها في تلك الأثناء فتفاهمت هي وأخوها على عجل ، ثم تعلقت الفتاة بشجرة الصنوبر وتسليقتها وانتقلت منها إلى شجرة الزان وأطلقت سبيل أخيها . وكان عملا مضنيا في الظلام وفي شبكة من الأغصان .

واستلقيا بعد ذلك على الأرض منهوكى القوى ، لا يغمض
لهما مع ذلك جفن ، كل يصف للآخر ما عاناه من رعب ، وتبينت
آنييت فحسب أن سوءا أصاب جان - فيليب لكنه لم يكن ممكنا
من ناجيتها أن تنفذ فى الليل الى مقربة منه ، وقد تحدثا عن قطاع
الطرق وعن أن سكر هؤلاء قد كان فيه حظهما ونجاتهما ، وقد
قال جان - فيليب كمن له فيما قال خبره ، قال : « من المؤكد
أن يزاول المرء الشنق بأسلوب آخر اذا كان صاحيا » . ثم تكلم
عن الرجل ذى اللحية الذى ربط الحية بحيث تعذر أن تطبق على
عنقه فلم يلحظ ذلك أحد من السكارى .

وكفا عن التفكير فى التنقيب عن الكنز ، وأرادا فحسب أن
يستجمعا شيئا آخر من القوة وعندئذ يجب أن يتابعا الهرب .

وأثار اختفاء التوأمين وأشيائهما النفيسة ضجة وشغلا كثيرا
فى فرينكش - كرومباخ ، شغلا على الأخص للألسن مافى ذلك
شك ، ذلك أن الفصل كان فصل العمل العاجل فى الأرض .
فلم يكن خفير الزراعة يحب بحال أن يهمل قطعة أرضه الضئيلة
ليطارد طفلين فى الدنيا الواسعة . وليس من الممكن بحال أن
تعرف الوجهة التى اتخذها . وقد أبلغت الحسالة الى السلطات
الرئيسية ، وهذه أثبتته فى صحيفة البحث وأجرت بعض
التحريات ، فى تهاون مع ذلك . وفى تلك الأوقات المضطربة كان
لدى الناس ما يشغلهم أكثر من أن يهتموا بمكان طفلين متسولين
فارين ، ولعله أيضا ، لعدم التأكد من اجراءات السلطات ، قد
تلاشى فجأة ماسبق أن وجهته الجهات الحكومية من اهتمام بالتوأمين
كما نشأ فجأة ، ولعل هذا الحادث جاء موافيا للتخلص نهائيا من
اضطرابه غير مريحة .

وبعد ذلك بسنين طويلة ، فى مايو ١٨١٢ وقفت ذات مساء

أمام حانة « الحمل » فى فرينكش - كرومباخ مركبة خفيفة ذات كبود يسوقها سائق يرتدى بذلة عسكرية فرنسية . وقفز من المركبة ملازم ثان أسود الشعر فى ميعة الصبا يرتدى بذة تبرىق من جدتها يظهر أنها جهزت من عهد قريب ، وأعان سيدة شديدة الشبه به على الهبوط .

وحملت الخادم العجوز التى جاءت تهبط السلم الخارجى فى كليهما مشدوهة لكن الضابط ربت على كتفها وتناولت السيدة يدها ، واستفسر كلاهما عن حالهما بلهجة أهالى اودنفاك وسألاها ألم تعد تعرفهما ، وماذا يعمل سادتها فصاحت العجوز : « ياللسيد المسيح ! ان التوأمن عادا ثانية ! » وتجمع فى الخارج أطفال جعلوا يحملقون فى المركبة ، ونادت الخادم آل العمدة ، وجاء الأخوة والأخوات يقفزون الدرج اليهما .

وفى المساء جلسوا جميعا معا فى غرفة الاستقبال . لقد لبثوا يتحدثون أسباب أخرى كثيرة عن هذا المساء ، وكان هذا أو ذاك يطلب بين الحين والحين رؤية سجل الغرباء الذى قيد فيه الشاب اسميهما بخط شائق كخط الأطفال والقرويين لم يتمرن عليه كثيرا : « جان - فيليب كونت ليرانكو ، ملازم ومدام آنيت اشفان مولودة كونتيس ليرانكور » .

وتذكر الأخوان كثيرا من الحوادث واستعلما عن أناس وحيوانات . وكانا عندما يأخذان فى حديث مع أحد - لم تكن علاقتهما به اذ ذاك طيبة - لا يبديان فى الواقع أية حساسية ، وعلى المائدة كان جان - فيليب يضع أمامه يده اليمنى يبرىق فيها خاتم الختم الذهبى العريض ذو الفص العقيقى الذى يعرفه الجميع بلاريب . لكنه اذا ناداه أحدهم بقوله ياسيدى الكونت أو ارتبك أمامه ضحك منه وقال : « ما هذا السيد الكونت الذى كان فى فرينكش - كرومباخ يرعى الماعز حافى القدمين ؟ » هكذا كان

عندها ، وكانت ابنة سماك فأزهاها أن تكون فى صحبتها كونتس صغيرة ، وأخيرا أدخل زوجها الغلام فى مدرسة حربية ، فقد كان الجيش الامبراطورى يحب حقا أن يرقى أبناء الأسر الكريمة ، والتقىا بعد ذلك برهة بأبويهما اللذين اهتمدا أنيهما بعد جهود طويلة ، وكانا يعطيان فى شقيرين دروسا فى اللغة الفرنسية ، لكنهما ، وقد كانا يعانيان شظف العيش كانا مع ذلك لا يزالان متمسكين بالأفكار العتيقة عن الطبقة والرفعة وينتظران عودة الملكية . ولم يريدوا أن يفهما أن الطفلين شبا فى نوع آخر من الوجود لا يمكن محوه ، وعاد جان - فيليب الى المدرسة الحربية وعادت آنيث الى هيئة أركان حرب الفرقة وتزوجت فى سن السابعة عشرة من موظف فى القومسيرية ، رجل من أصل متواضع ، ولم يرق هذا الوالدين ، لكن آنيث وقد كبرت ماكانت لترضى بغيره بديلا ، فلما تخرج جان - فيليب من المدرسة الحربية عينه قومندان الفرقة فى أحد آلياته ، وهكذا اجتمع شمل الأخوين ثانية . وكانت الفرقة تزحف نحو الشرق فربطت برهة فى احدى الدور . وهنا سمعا من الصحف ومن الأحاديث بقطاع الطرق ، أولئك الذين كان شعب اودنفلد يسميهم الأوغاد والذين كانت قضيتهم تنظر آنذاك فى ميشيلشتات . وقد قيل ان زعيمهم له سمة من نار فى وجهه . لكنه لما كان ملثما دائما بلثام أسود لم يمكن القبض عليه . فطلب جان - فيليب أثر ذلك اجازة بضعة أيام ، وخرج الأخ والأخت فى طريقهما الى ميشيلشتات ليدليا بشهادتهما ، ودار الكلام آنثذ كثيرا عن قطاع الطرق وتسامح الناس ببيتين من الشعر كانوا قد كتبوهما على الأبواب بالطباشير بعد نجاحهم فى حوادث السطو :

نحن ثمانية نأتى ليلا

ننتزع العجل من حضن البقرة

ذلك وامتنعوا عدة سنين عن ارتكاب أى شىء ، لكنهم عادوا بعد ذلك فاجتمع شملهم ثانية ، وقد كان كل من فى حانة « الحمل » يعرف من التفاصيل الجديدة ما يرويه .

وخرج التوأمان فى الوقت المناسب فى صباح اليوم التالى وبلغا « ميشيلشتات » وطلبا حجرتين فى الفندق ، لكنهما لم يريا مندوحة عن الرضى بحجرتين فوق السطح لأن فصيلة من المدفعية الفرنسية كانت قد وصلت الى البلدة فى مساء اليوم السابق وأقامت يوما ترتاح فيه فشغل ضباطها جميع الغرف .

وتوجه التوأمان الى المحكمة وأدليا بشهادتهما ثم رجيا بعد ذلك أن يأخذا مكانا عند نافذة متحركة تفضى الى ممر محيط بفناء السجن ، واقتيد الرجال الثمانية واحدا بعد الآخر أمامهما فى تودة وهم يرسفون فى الأغلال ، وطلب الأخوان أن يعاد عرض بعضهم لأنهما لم يكونا واثقين من أمرهم ، على أنهما لم يستطيعا أن يقولوا شيئا أكيدا عن ستة من هؤلاء الناس ، لكن اثنين منهم كانا قد انطبعا فى ذاكرة جان - فيليب بحيث كان خليقا أن يتعرف عليهما ثانية بعد عشرات السنين ، كان أحدهما الرجل الذى كان يحمل اللثام الاسود يستتر به دمغة النار . فقال مستشار المحكمة : «شهادتك تكفى يا حضرة الملازم ، فهى تدينه» وكان الآخر هو ذلك الرجل ذا اللحية الذى وخط لحيته الحمراء فى تلك الأثناء عدد من خيوط المشيب ، مافى ذلك شك . وقد تساءل جان - فيليب بينه وبين نفسه : هلا يستطيع أن يمد اليه يد المساعدة بأن يزعم بأنه لا يعرفه ؟ لكن هذا ما كان ليجدى شيئا ، وقد سمع أيضا أن الرجل اعترف بنقط كثيرة من الاتهام ، وهنا أثر أن يتكلم فى مصلحته ، وهكذا وصف كيف عامله يوهان آدم كروبتزрман ، فقد كان هذا اسمه ، وقد كان التوأمان لطيفة

وفى الليل طرق باب مأمور السجن وهو نائم
فاستيقظ من نومه ليتبين على ضوء المصباح الكدربذلات فرنسية
وكانت لأربعة من الجنود وأونباشى يحمل خرجا من الجلد والضابط
الذى كان لابد من مرور السجناء أمامه وقت الظهيرة .

وقدم هذا الضابط اليه أمرا مكتوبا ، أمرا يحمل أختاما
وطوابع .

فقال الموظف : « انى لا أستطيع قراءة الفرنسية » .

فأجابه الضابط : « هذا أيضا غير ضرورى . فأنت ترى
أن هنا اسم يوهان آدم كرويتزрман فقدنا فى الحال اليه ، فعندنا
أمر بأن نأخذه معنا ، فلا بد أن يمثل هذا بالفعل أمام المحكمة
الامبراطورية العسكرية فى ماينتس » .

فقال مأمور السجن : « سأحضر أحد سادة المحكمة » .

« ليس لدينا وقت لذلك . هيا » .

وكان السجن مستلقيا على برش مشدود الوثاق الى سلسلة
بالخائط .

وأمره جان - فيليب : « فك السلسلة » .

فأجاب المأمور بأن مفتاح السلسلة ليس معه ، فهو يسلم
كل مساء فى المحكمة وهو ذاهب لاحتضاره . وتحول الى الباب .

واستبقاه الضابط ، لكنه أرسله بعدئذ الى الممر وأمره
بالانتظار وسيرافقه جنديان ، وحقق السجن فى الضابط والجنود
يعينين واسعتين .

من اللوم ، لكنه وان كان هذا التصرف لطمة لكل عدالة فقد
كان التوأمين من الصغر متفقين ، قد علمتهما تجارب الطفولة
الا خير أبدا لانسان من جهة حكومية حضرية ، وأن لكل امرئ
الحق فى أن يرى فى السلطات عدوا له وأن يخاصمها .
ولما فرغوا مد الى كرويتزرمان يده وقال : « هيا » .

وفى الممر رجاء المأمور أن يدع له الأمر المكتوب وأن يعطيه
ايصلا بتسلم السجين .

فرد عليه جان - فيليب : « لا حاجة الى ذلك . فقط صباحا
ستبلغ المحكمة كل مايلزم » .

وانصرفوا ، لكن الجنديين بقيا هناك ساعة أخرى ولم يسمحا
بابتعاد المأمور . وقد لاحظ هذا أن رائحة الحمر تفوح منهما
قوية .

وفى الصباح الباكر ظهر مستشار المحكمة هائجا عند قائد
الفصيلة الذى كان جالسا يتناول طعام الافطار مع ثلاثة من
الضباط على عجل - ذلك أن الخيول كانت مسرجة وكانت بطاريتان
قد تحركتا بالفعل . وأراد مستشار المحكمة فى فرنسيته العسيرة
أن يروى حكاية طويلة ، لكن القائد تبرم به وقال له ان عليه أن
يذهب الى حيث . . أفلا يرى أنهم على عجل ؟ . فاذا كانت عنده
شكوى فيستطيع أن يقدمها كتابة .

وترقب على ذلك آنثذ شكوى تحريرية مستفيضة من الطريق
الرسمى الى حكومة الغراندوق ، ومن هذه الى المفوض الفرنسى
العسكرى فى دارمشتات ، وكان الكلام فى الشكوى يتناول
الاكراه والحداع واطلاق سراح سجين بالقوة ، ودارت من جرائها
مكاتبات أخرى عديدة تعطلت فى بعض الجهات أمدا طويلا جدا

دون سبب ظاهر لكنها من ناحية أخرى ودون سبب ظاهر أيضا حركت بسرعة مذهلة . لكن هذه الحالة كانت أندر وأخيرا في الأيام الأولى في نوفمبر ١٨١٣ جاء رد فحواه أن الملازم الثاني الكونت ليرانكور والجندي كرويتزрман سسقطا قتيلين في مالو - جارو سلافيز ، وكانت هذه إحدى رسائل وردت أخيرا الى دار مشتات من الجهات الرسمية الفرنسية . ذلك أنه حوالى هذا الوقت ألغى الغراندوق المحالفة الفرنسية وانضم الى الجانب الآخر .

وكانت قضية أخرى فيما يتصل بكلا الشخصين العسكريين الآنف ذكرهما مرفوعة أمام سلطات هس القضائية على مدام ايشفين المولودة كونتس ليرانكور للتحرى عما اذا كانت هذه لم تقترف شيئا من المحاباة أو المساعدة أو التحريض ، وكانت مفوضية هس فى باريس قد تولت هذه المسألة أيضا الى جانب مسائل أخرى عديدة . وأخيرا ، وكان ذلك فى سنة ١٨٢١ ، أمكن تبليغ دارمشتات أن أخت الضابط القليل الأرملة تبعت زوجها الثانى المزارع بأسفير الى الهند الغربية وماقت هناك بالحمى الصفراء بعد الانتقال اليها بزمن قصير وحفظت الأوراق على الأثر .

وتحول البيت بعد ذلك الى بيت للايجار ولم يكن مستحيا جدا لأنه من ذا الذى يحب أن يشقى بصعود الدرج ، وهكذا لم يسكنه أناس محترمون جدا . . . وكلما علا الصعود اليه كلما قلت الرغبة فى سكناه . . . وكانت تسكن فى طبقته الرابعة أرملة مسجل محاضرات وقد استأجر ديبلنجر عندها حجرة ، ولما كان يميل الى البدانة بعض الشيء فانه لم يكن يحب صعود الدرج ، وكان يشكو شقاء الأسر ، ومع ذلك فهو قنوع لأن حياته فى برجوشوف كانت أكثر راحة له منها فى الألاى . .

وكانت الأرملة مرتاحة اليه ، فقد كان يتحلى بالهدوء ولا يؤذى أحدا . . . وكان الساكن الذى سبقه قد أضاع عليها ايجار شهرين ، فرأت أنه أكفل لأمنها أن يكون الساكن من الأسرى ، لكن خيب ظنها أنبقى الأسير طليقا لا تقيد حريته ، هذا الى أنه قد بدا لها فى الوقت نفسه بادية ذى بدء أن من المخاطرة أن تؤوى فرنسيا فى بيتها .

وقد سألتها امرأة البدال - وهى تشتري منها - عن الساكن فأجابتها :

« انى والله لا أكذب فهو مثلنا تماما » . . . ولعلها كانت تظن أن للفرنسيين قرونا تنبت فى رعوسهم أو أن لهم ستة أرجل . . . وكان ديبلنجر يعد فرنسيا كما لا بد أن تكونوا قد لاحظتم ، لأنه ما الذى يعلمه المرء فى برجوشوف عن بفاريا ! . . . ولقد أسر حقا فى الحرب الفرنسية . . . وكان لهذا مزايا لكن كانت له مصاعب أيضا . . . ومع ذلك فمزاياه ترجح مصاعبه .

كان مسموحا لديبلنجر أن يتحرك داخل المدينة وفى محيطها . . . لكن كان عليه أن يتوجه الى المخفر الرئيسى ظهيرة كل يوم ليبلغ عن نفسه ، وكان بالمخفر كابتن أعرج خدم تحت أمرة سوفوروف ، ومن ثم كان يعد حجة فى كافة الشئون الفرنسية ، وقد سأله بعض

الطلبة عن ديبلنجر ، وحدث أيضا أن أحدهم رجاء أن يكون مترجما له في هذه المسألة أو تلك . . وأخيرا قال برما انه يصعب عليه التفاهم معه ، فان الطبيب الفرنسى يتكلم لهجة بعينها يطلق عليها الناس لغة معينة . .

وكان فى برجوشوف طبيب مدمن للخمر ، أوهنته السن وأضعفت ذاكرته . . وقد زار ديبلنجر لأنه كان يرى أن من واجبه أن يجامل زميلا ، وكان الى ذلك يضجره أن أحدا لم يعد يصغى الى نكاته التى تقادم عليها العهد ، وأراد أن يتكلم مع ديبلنجر بالفرنسية لكن ديبلنجر كان ضعيفا فيها ، ولما كان مايزال يعرف من أيام المدرسة بعض اللاتينية فقد قال له : « أتفهم اللاتينية ؟ » .

فنظر اليه الدكتور مرتاعا . .

فسأله ديبلنجر : « عالم لا يعرف اللغة اللاتينية ؟ » .

فتلثم الشيخ مرتبكا : « أعرف ، أعرف » . وقال له ديبلنجر انه لا يليق فى الحق بالعلماء أن يتكلموا اللغة نفسها التى يتكلمها نجارو التوابيت وعمال النقل . .

ومضيا يتحدثان قليلا بعد ذلك ، ولم يقل أحدهما للآخر مايرغب فى الحق أن يقول ولكن قال لمن له اتفاقا : بضع عبارات . . وبهذه الغرابة كانت تحكم أيضا فى العادة الأحاديث التى كانت تجرى بين ديبلنجر وأهالى برجوشوف .

وقد رأى ديبلنجر أن من المهم عنده تقريبا أن يتكلم الفرنسية بدلا من أن يتحدث بالروسية . . فجاء ببضعة كتب ، لكن التحصيل لم يكن عنده سهلا قط وهكذا لم يتقدم كثيرا ، وكان كلما جلس بكتبه عند النافذة تاهت نظراته وأطلت على ساحة السوق المترامية الخالية حيث يتمرغ الخنازير والأطفال فى القاذورات وحيث يتدرب

كوبيكات من أربعة وعشرين • وفى العشرين من كل شهر كان ديبلنجر يذهب مرة الى المخفر ليتلقى مخصصاته كأسير •

ولقد كان من العسير الاكتفاء بهذه المخصصات ، لأن ديبلنجر لم يكن يحب التقدير ، لكنه لم يحتج الى هذا أيضا ، فقد كفى أن يتسامع الناس بأن الفرنسى طبيب حتى يهرع اليه بعض المغامرين ، وأية امكانيات كانت قائمة فى مدينة برجوشوف لقضاء حاجة من يبغي أمرا ؟ وقد تلا الواحد الآخر • ولما كانت امرأة رئيس البوليس تشكو من برد فى المعدة ومأمور المركز النبيل يحتاج الى مرهم جديد للروماتيزم فلم يسأل عن الدواء اللازم طويلا •

وكان الطبيب الشيخ يحب كثيرا أن يخفف عنه العمل وخاصة فى الجو الرديء ، فطلب ديبلنجر مرارا الى استشارة وأعد لذلك بضع جمل لاتينية سلفا ، وهكذا أختلط الاثنان اختلاطا يبدى فيه كل منهما حيال الآخر أهميته وعلمه وأدبه ، لكن الشيخ لاحظ على عكس ما توقع - لاحظ مع الزمن أن التيسيرات التى حققت رغبته فى الراحة كانت على حساب شعبيته وسمعته الطيبة •

لقد كانت معارف ديبلنجر متواضعة ، وكانت حسب الجنود عند الضرورة • وهؤلاء لم يكن يجوز لهم أن يشكوا ، وكان حظه طيبا لان أهالى برجوشوف كانوا شعبا صحيح البدن سليم الجسم يتخلص من أمراضه بسهولة ، لكنه كان بين ظهرائه أيضا أناس كانوا يشعرون بأنهم غير راضين كل الرضى ، وخاصة بعد أن خفت الشهرة (المودة) الفرنسية الاولى بعض الشيء ، هذا الى أن الطبيب الشيخ كان أخيرا يطوف ويبتسم بسوء نية وبصورة غامضة ويقول:

« ينبغى أن يرى الناس فعلا الى أين هم مسوقون » • يلمح بذلك الى شكوى قدمها الى المحافظ وجاء فيها : تفضلوا يا صاحب السعادة بالعلم الكريم بأن أساس طبه ليس العلم الحقيقى ، علم

الوطن ، بل مزيجا من الشعوب الاجنبية . ومن يدري اذن ألا يكون محرضا من أهله على تقويض صحة الشعب الروسى بصورة ماهرة ؟

وكانت آنذاك تعيش فى الطرف الشمالى الشرقى من مركز برجوشوف بعيدا جدا عن المدينة ، مالكة أطيان شابة ثرية اسمها فيرا لفوفنا بلكيينا ، كان على زوجها اثر عرسه مباشرة أن يلتحق بالجيش فلقى حتفه فى أول اصطدام مع العدو ، وكانت تنتظر مولودا ، فلما حان الوقت انتقلت الى بيتها فى مدينة برجوشوف ، وكانت تعيش لحداها معتكفة كثيرا عن الناس ، ولم يكن اتصل بها خبر وجود طبيب فرنسى اذ ذاك بعد ، وكان فى نيته أن تستعين بالطبيب المسن ، وبدا أن الولادة متعسرة ، وكابدت الشابة بلكيينا آلاما مبرحة ، وتباطأ الجنين فى الخروج واعتقدت المرأة الشابة ألا نهاية لعذابها .

وكانت ساعة متأخرة من الليل ، والطبيب يغالب النوم فقال أخيرا : « لا فائدة ولا بد من الصبر . فليكن الله فى عونك أيتها الأم . انى رجل مسن ويجب أن أكون فى فراشى فغدا صباحا لا بد لى من السفر » ..

وعبثا توسلت اليه كل النسوة اللاتى يتبعن بيت بلكيينا أن يبقى ، وانضمت اليهن القابلة نفسها .

وانصرف ، وكانت الشابة فى ألم المخاض بحيث لم تحاول استبقاءه ، وجعلت النسوة يندبن ويلغطن ، وتحديث احداهن عن الطبيب الفرنسى فقالت انه لا ينعمس كما يفعل المسن ، واذ بدأت الكلام عنه فقد مضت أيضا تحكى عن معالجات عجيبة قيل انه قام بها . قالت انه يفهم وصف المساحيق والنقط ، فلا يكف المرء عن العجب منه ! . انه ليكتب الوصفة فلا يحتاج الصيدلى الا الى التركيب ويهب الله عندئذ الشفاء .

شيء على الاطلاق فيما خلا سريره ، وقد كان يشتم ويسب . لكن العامة تحب الاطباء الافظاظ وتضع ثقتها فيهم .

وعادت العجوز تنادى : « أيها الأب الصغير ! . أيها المحترم ! . ان لك لضميرا في الحق ! انك لن تترك سيدتنا تقضي . أيها المحسن الينا ! أيها العائل لنا . لست في حاجة الى المجيء . صف شرابا . . صف مسحوقا . . اكتب وصفة ، فقد منحك الله هذه الهبة . »

فزمجر ديبلنجر أخيرا يقول : « اذن حسن . . وصفة باسم الشيطان انتظري . . »

« انى أنتظر ، انى أنتظر . . أكتب فقط وصفة كما تشاء سيادتك . »

فأقفل النافذة وتناول جرعة من الماء لينتعش ثم جلس الى المائدة وعز عليه أى خاطر . وأخيرا كتب مسحوقا بوصفه مقويا ومهدئا بوجه عام ، ولكى لا يلفت نظر الصيدلى حينما يطرق بابه ويخرج من بيته وسط الليل من أجل وصفة كهذه . وزاد على الوصفة أشياء أخرى حلوة ومرة لا يمكن بالتأكيد أن تضر .

ووقع باسمه تحتها وذر الرمل فوقها . وذهب الى النافذة . لكن صعوبة نشأت اذ ذاك . . فكيف يستطيع بحسب الشيطان أن يوصل الوصفة الى يدى هذه المرأة اللعينة ؟ . أيلقى بها إليها من النافذة ؟ .

مستحيل . . فلا مناص من أن تقتنصها العاصفة وتذروها فوق نصف المدينة . وباب البيت متربس بالمتراس ، وهبوطه فى هذه الليلة درجا يمتد أربع طبقات ثم صعوده اياه كرة أخرى كان فى الحق ينغصه .

على أن خاطرا خطر له والحمد لله ، فقد جعل من ورقة الوصفة

وقبلت العجوز التى أزعجته من نومه يديه ، واستنزلت من السماء كل بركة عليه ، وأرينه الطفلة التى لم يجد فيها ما يخالف أى مولود حديث من مدينة أنجاشتات الى برجوشوف ، واقتدنه على أطراف الاصابع الى النفساء . . ونحت احداهن الستائر قليلا ، فاذا بالمرأة الشابة راقدة مستغرقة فى النوم فوق سريرها المصنوع من خشب الموغنا الجميل الذى كان محلى بصور أطفال الملائكة .

وكانت ما تزال شاحبة اللون قليلا ، وزاد من هذا الشحوب فى صورة مؤثرة شعرها الاسود الجميل المائل الى الزرقة ، المجدول ضفيرتين سميكتين ، تجعل ديبلنجر يتأملها راضيا ، ولم يلبث أن داخله الشعور فجأة بأنه أحسن صنعا .

وتراجع حذرا ، وكتب فى الردهة بعض وصفات أخرى، وأوصى لتقويتها بنبيذ البرتو مسع البيض النىء ، وقال انه سيعود عما قريب .

وأعانته العجوز على ارتداء معطفه وهى تكيل له آيات الحمد المؤثرة وكانت تقول المرة بعد المرة : « يا للمسحوق الذهبى الجميل . . لتعلم ياسيدى الدكتور أن قوة الشفاء الحقة ، الحقيقية ، هى فى الذهب ، فقد دبرت السماء هذا من قبل » .

فسأل ديبلنجر متعجبا : « فى الذهب ؟ كيف فى الذهب ؟ » .
« لكن كيف اذن ياسيدى الميجل ؟ لقد كان ذهبيا هذا المسحوق الطيب الذى تفضلت بالقائه من النافذة . ذهبيا كالذهب فى كنيسة الله » .

قال ديبلنجر : « كذا ، كذا ، نعم . . نعم . . والآن كيف قدمته الى السيدة المحترمة ؟ »

فردت فى حمية : « فى مشروب الخنزير أيها المحسن . فقد

فكرنا فى أن هذا الشراب أقوى من الماء ، فكنا نتناولها كل بضع دقائق بضعة صغيرة حتى نفد المسحوق ، فاذا بالمولود يأتى فى تلك الأثناء ، ويألفها من طفلة عجب . . أيها الأب . . ستعطينى أيضا من المسحوق ، اذ يحين فى حوالى عيد العنصرة دور ابنة أختى . .

لم يكن وضع فيرا لفوفنا السعيد بلا نتائج بالنسبة لديبلنجر وأقل هذه النتائج أنها ثبتت سمعته كطبيب ، فكان من ذلك الحين يأتى الى الأرملة ليطمئن على نمو الطفلة وصحة الأم ويساعد على ذلك ما أمكن ، ولما كان ابن عم فيرا لفوفنا قد ألحق بالمحافظ كموظف مكلف بالقياس بمهام خاصة ، فقد تلقى الطبيب المسن ردا على عريضته لم يكن يتوقعه ، اذ استدعى الى خدمة الجيش ، وعهد اليه انشاء مستشفى فى عاصمة المحافظة كانت قد تبرعت به سيدة وطنية . وكان هذا تشريفا له وأمرأ مواتيا فى الوقت نفسه ، وقد ألقى خطابه واجتمع له من بادلهم الأنخاب ، وحضر مجتمعه أيضا أناس لم يكونوا قد عرفوا بعد نواذره وفكاهاته ، ولم يؤد عملا كثيرا ، وفى ذات مرة جاءوا له باثنين من الجند تشاجرا ، وفى مرة أخرى بمجنده كسرت ترقوته وهو يقفز ، لكن عاصمة المحافظة كانت من البعد عن ميدان القتال بحيث ان الجرحى الذين كان يراد موافاته بهم كانوا يشفون فى الطريق اليه اذا واثاهم الحظ ، فاذا ساء حظهم قضوا فى الطريق وفق تعليمات الخدمة السارية ، لكننا لا نريد أن نتعجل فى الحكم على الحظ وسوء الحظ كما سبق أن قررنا فى بداية هذه الحكاية . هذا الى أن الطبيب المسن لا يهمنى بعد ذلك ، والشئ المهم بالنسبة لنا أن طعنه فى ديبلنجر ذهب أدراج الرياح ، وفى ذلك الحين جعل ديبلنجر يحس أن رمل علبة التجفيف يحتوى فى الواقع ذهباً .

وعادت فيرا لفوفنا فى فصل السنة الجميل الى ضيعتها ثانية . فكانت كثيرا ما تبعث بمركبتها الى ديبلنجر ، فاذا سمحت له أعمال

مهنته ركب اليها ، ولم يكن مناص من أن يصدر له كابتن المخفر
الرئيسى جواز مرور لمثل هذه الركبات مرة واحدة ، وتصادقت الارملة
وديبلنجر ، اذ كان حقا شابا وجيها وسيما ، بل انه كان يفهم فى
شئون الزراعة شيئا ما ، وكانت تتكلم الالمانية قليلا ، وأحرز هو مع
الايام تقدما فى اللغة الفرنسية .

وانضم ملك بفاريا قبيل معركة لىبتسيج الى الحلفاء فبات
ديبلنجر بهذا حليفا ، وبغثة لم يعد فرنسيا حقيقيا ، وهو ما وجدته
بعض الناس فى برجوشوف مخيبا لظنونهم بعض الشيء ، لكنه الى
أن تلقت برجوشوف هذه الاخبار والى أن استنتجت منها أشياء
كاطلاق سراح الأسرى وما أشبه ، أستغرق الأمر وقتا طويلا جدا ،
وهكذا لبث ديبلنجر وقتا طويلا آخر لا يزعجه أحد .

لكنه بعد ذلك لاحظ يوما أن عليه أن يقرر أشياء فهل ينبغي
أن يعود حقيقة الى بفاريا ، وأن يزحف على فرنسا فى حرب جديدة ،
وأن يجلس ثانية فوق مقعد المدرسة ليتلقى دروسا فى حماية البلاد،
وأن يضايق نفسه بالدائنين وبالنصائح الأبوية ؟

وركب الى فيرا لفوفنا ليشاورها فى الامر ، وبدأ بأن قص عليها
حكاية وصفة الدواء فارتمت على صدره مغرقة فى الضحك ، لكنها
تنهدت بعد ذلك ومررت مندليها الدنتيلا الجميل الصغير على عينيها
وقالت ان مربية طفلتها التى تفهم فى كشف الورق وتعبير الرؤى قد
تنبأت لها دائما بأنها ستلقى فى الرمل شفاءها وهناءها ، والقرية
التي لقي فيها زوجها حتفه تسمى بسكى ، وكان ديبلنجر يعلم أيضا
ان اسم المكان هذا يطلق على شريط رملى من الارض .

وتزوجا فى سنة ١٨١٤ وترتب على ذلك أن عرفت فيرا لفوفنا
كيف تدبر لديبلنجر أن يصبح مديرا لاحدى مستشفيات
بترسبورغ .

فلما فرغت مزولة حياته الرملية كان قد بات فارسا يحمل
نشان «أنى» ويشغل رتبة مستشار دولة • ويملك ضيعتين فى
محافظة تفرش •• ذلك ان الملك الموجود فى مركز برجوشوف أصبح
من نصيب الابنة • وقد اختصته صحيفة سان بطرسبورغ الالمانية
بكلمة رثاء مستفيضة • ونعتته بأنه رائد فاضل للروح الالمانية فى
الروسيا •

وقد وقع حفيده الأكبر الذى لم يكن يتكلم كلمة المانية فى
أسر بفاريا فى سنة ١٩١٤ • واذا كان بوصفه متطوعا شابا لا رتبة
له فقد فرض عليه العمل فى مزرعة قروى • فلما انتهت الحرب بقى
معلقا هناك ، وتزوج • والا فماذا كان خليقا أن يفعل فى روسيا
وقد رزق أبنا نشأ بفساريا ودرس الطب فى سنة ١٩٤١
فى ميونيخ • ودخل الجيش • ومن يعلم كيف كانت حكاياتنا
ستواصل اذا لم يعن لنا أن نختمها عند هذا الحد ؟ •

الخيال القديم

« Der alte Husar »

أسماء الشخصيات :

Mawrikiĵ Afanassjewitsch Terentjew

حافريكي أفاناسيفتش ترنتيف

Nikola

نيقولا

ان أحسن الحكايات كما نعلم هى دائما تلك التى كانت
ما تزال تقع فى العصر الأوتقراطى ، ففيها شىء من روعة الخرافة
والمجاز العتيق وهو مالا تستغنى عنه حكاية حقة . والسلطة ليست
تجريدية ، وليست غفلا ، ففيها شخصية فى صورة الامبراطور .
وفكر ماذا تصبح الأقصوصة اذا أوردت فيها بدلا من الملوك والأمراء
والخلفاء رؤساء وأبناء رؤساء ومستشارين فى مجمع الكرادلة ،
أو اذا خلص المرء أميرة ثم ظهر بعد ذلك أنها ابنة أحد مستشارى
الاتحاد .

للمرء أن يقول ما يشاء ضد النظام الأوتقراطى فلن يرغب
معظم الناس فى عودته ، والراجح أنه لم يعد يوائم عصرنا . ولو
أننا خبرنا أن شعوبا بأسرها نزلت مسرورة عن حرياتنا لبعض
قطاع الطرق والمهرجين ، فاذا طرحنا الشعارات والتصورات
التقليدية جانبا - وهو صعب أو مستحيل لكثير من الناس - فيجب
أن نقول انه توجد دوائر تاريخية وجغرافية للأوتقراطية لها
ما يبررها ، والمصاعب لا تبدأ دائما الا حيث تكون مقتضيات أخرى
قد تطورت على مر الزمن غير تلك التى تتم فى ظلها الظاهرة التاريخية
المعنية ، وهى فى هذه الحالة النظام الأوتقراطى ، على أنه ليس ثمة
ظاهرة تاريخية قادرة على أن تنزل طوعا ، بل على أن ترى أيضا أن
من الممكن أو من الضروري أن يحل غيرها محلها .

عندئذ تتصارع الأنظمة بعضها مع بعض الى أن تقوم بذلك الحياة التاريخية المرادة . هذا على الهامش ، فطبيعي أن الأوتقراطية كانت فى الروسيا فى وقت بعينه منطقية وضرورية ، وهى فى الحكايات ما تزال كذلك الى اليوم ، ذلك أنها فى الحقيقة صورة مما يجرى فى العالم ، فيجب ألا يرى المرء أن اساءة استعمال السلطة عن جهل من خواص بعض بعينه من أشكال الحكم ، وانى يؤكد لك أن مثل هذا يقع فى كل روضة أطفال وفى كل فصل من فصول المدرسة ، وفى كل عمل مصلحى أو تجارى ولا يصح الخلط حقا بين أوتقراطيتنا ونفس الحكم الملكى المطلق كما كان فى الأقطار الأخرى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولم تكن تلك الأوتقراطية مفروضة ، فظل كل انسان يراها أبدا طويلا شيئا لا غبارعليه . وأخيرا كان الأوتقراطيون مجرد منفذين للقدر ، لكن القدر محق دائما ، وقل أنت نفسك : أينبغى أن يظل رجل كترنتييف يجرى حقا بالمناصب وتغدق عليه الألقاب ؟ .

لكنك لا تعلم مطلقا بعد من هو ترنتييف ؟ ، فلنتوقف هنا لحظة .

من الغريب حقا أن يشترط فى أناس بعينهم صفات بعينها لأنهم يحملون على ستراتهم جدائل بعينها ، فهناك تصور رومانسى عجيب « للهوسار » أو الخيالة . لكنه كبعض هذه التصورات من القوة بحيث أمكن أن يؤثر فى الحقيقة . وقد كان سلطان هذا التصور من الكبر بحيث انه اذا وقع فى ألاى من آلايات الخيالة أى حادث فاضح كان القومندان وكبار الرفاق يسعون أكثر مما يحدث فى جهات أخرى الى تسوية الحادث وكتمانه وما أمكنهم ذلك يقولون ملتمسين العذر نوعا ما وفخورين نوعا ما فخرا يكادون لا يخفونه : حكاية أصيلة من حكايات الخيالة ، كذلك سائر الناس كانوا حيال

الخيالة أكثر تسامحا منهم حيال من عداهم ، وأذكر لما كنت ماأزال حامل راية أن قومندان الآلاى استدعانى مرة وقال لى : « هذه الحكايات لا يجوز أن تقع ثانية ، فنحن هنا لسنا بين الخيالة » ، وطبعى انه يمكن الاعتراض بأن أمثال هذه الأشياء يصح أن تقع بين الفرسان والفارعين من المشاة والقوزاق و فرق المتسللين والمدفعيين العلميين حقا . . لكن كان يوما ما شيء يسمى أسلوب الخيالة ، وطالما وجدت الخيالة كان ينتظر منهم صئثات الخيالة ويتوقع الاستهتار والطيش والجرأة وأيضا تجاوز للحد ينطوى على عدم المبالاة بتعليمات الخدمة . وهذا يتصل بالماضى البعيد ، ذلك أن الخيالة « الهوسار » كانوا فى الأصل لا ينتمون فى بعض البلاد الى الجيش النظامى ، فقد كانوا شيئا كرجال المقاومة أو كمغامرى الفرق الحرة ، يجب أن يكون الواحد منهم راقص مازوركا متوحشا خياليا خصب الخيال ، فارسا جسورا ومعاقرا لبنت الحان ومبارزا . يؤمن بأنه لا يمكن أن يصيبه شيء لأن للخيال « الهوسار » حظا معروفا .

والحكاية التى أريد أن أقصها عليكم لا بد أن تكون وقعت فى سنة ١٨٣٥ ، لان من شرائطها عادة كانت مرعية فى البلاط القيصرى وأبطالها نيقولا الأول فى السنة المذكورة . وكان هذا الأسلوب الخاص ما يزال اذ ذاك منطبعا فى الخيالة « الهوسار » . وبهتت علاماته المميزة فيما بعد بطبيعة الحال ، لكن شيئا منها عاش حتى فى زمنى .

وقد دخل مافريكى أفانا سيفتشس ترنتييف ابن موظف مات مبكرا من موظفى وزارة العدل فى محافظة تفرشن - دخل تحقيقا لرغبة وصيه ، فتى من النبلاء فى آلاى من آلايات خيالتنا « الهوسار » .

ولم يحبه الرفاق ، لأنه كان حريصا على واجباته ، حاذقا ، مستقيما لكنه كان اذا تناوله الحديث قيل عنه فى النهاية : « انه ليس خيالا » وكان البعض يضيف الى ذلك قوله : انه ينتسب الى قسم الطبوغرافيا . . ذلك أن أسلوب الخيالة كان ينطوى بطبيعة الحال على استهانة بعينها بالثقافة العلمية .

وهو نفسه لم يكن يستشعر الارتياح فى الآلاى ، فقد لاحظ أنهم يتبرمون ولا يختلطون به . فلما مات وصيه أخيرا وأصبح هو برتبة حامل العلم طلب الاقالة ليدخل فى الخدمة المدنية ، فسر الآلاى أيما سرور بأن يتخلص منه حتى لقد زوده بأطيب الشهادات ثناء عليه .

وتوجه الى سان بطرسبورغ ووجد عملا فى وزارة المالية وتزوج . وكانت الزوجة من أسرة موظف بالمالية وكانت مثله فى الراجح تبعت على الملل وعاشا دون أن يرزقا أولادا .

لكن كانت لمدام ترينتييف أخت كبرى . وقد قررت هذه الأخت مصير مافريكى أفانا سيفتشى ليس - بلا ريب - بالمعنى الذى يمكن أن تقرر به بعض النسيبات الطروببات مصير بعض الأزواج ، وقد لاحظت عدا ذلك أن القدر لا يستخدم فى قراراته النسيبات الانادرا . والحمد لله . . وألا فالى أين يكون هذا خليقا بأن يفضى ؟

وواضح أن مافريكى أفانا سيفتشى كان صالحا جدا لوزارة المالية ، اذ بات فى أمد وجيز لا يستغنى عنه فقد كان من أولئك الموظفين الذين يرسلون الملفات الى مساكنهم بعد الفراغ من العمل .

وكان فخورا بأنه اعتاد أن يكون أول من يظأ أرض الوزارة وآخر من يغادرها فكانت حياته منتظمة أكمل انتظام ، كان يأوى الى فراشه مبكرا جدا ، وينهض مبكرا جدا ، وفى أيام الأحاد

يتناول - مراعاة لصحته - مشروباً روحياً قبل الغداء ويستمتع بعد ذلك ثلاثة أرباع الساعة الى « البيان » تعزفه له زوجته ، ولم يكن من عادة آل ترينتييف الاختلاط بالناس .

وسرعان ما لاحظ الوزير ما يحسنه مافريكي أفانا سيفتش فرفعه الى رئيس قسم ، وبقي برهة في هذه الوظيفة ، فاذا بكتاب يأتيه من نسيبته وكانت قد تزوجت من موسر من أصحاب الأطيان في محافظة كورسك ثم لم تلبث أن تزلزلت . وكل امرئ يفهم أنها تتوق الى شيء من التغيير في حياتها الريفية الوتيرة ، فأبلغت آل ترينتييف أنها قادمة للزيارة لقضاء عيد الميلاد والدخول في السنة الجديدة .

وتفكيرها بالذات في أن تمد اقامتها في بطرسبورغ الى ما بعد رأس السنة قد كان له سببه ، وقد سبق لى أن ذكرت أنه كانت اذ ذاك في بلاط القيصر عادة بعينها ترجع في الراجع الى عهود قديمة جدا فأرادت النسبية أن تنتفع بهذه العادة طلباً للترفيه ، وفكرت أيضاً بطبيعة الحال في أن يكون لديها عند عودتها الى الريف ما تقصه على جيرانها ومعارفها .

وكان يحتفل بحلول العام الجديد في البلاط على نحو ماثور بمرفع يقام في القصر الشتوي ، وكان لكل امرئ ، أميراً كان أو فلاحاً ، غسالة كانت أو أرملة جنرال ، حرية الدخول في القصر دون أية رسميات ، كأنما أريد أن يكون الناس مرة في العام على الأقل ، سواسية جميعاً أمام القيصر كما هم أمام الله ، وأن يدخل القصر آخر الناس مرتبة كما يدخل أولهم في العام الجديد الذي لا يعلمون ما يخبئ لهم ، وأن تقرب كل بداية لعام جديد هذا الفرد أو ذاك شقة أخرى من نهاية مقدراته على الأرض .

وكانت الحفلة التنكرية تجري بحيث تقوم أسرة القيصر ومعها كامل الحاشية بجولة في كافة قاعات القصر الشتوي المخصصة

للاستقبالات والسمر مرتدين جميعا معاطف التنكر ، ثم يتعشى البلاط في مسرح الارميناج بعد ذلك ، وهنا يجوز لكل امرئ أن يشهد العشاء ويستمتع الى موسيقى المائدة . وكان الجمهور يبلغ الآلاف عدا فكان في الوسع رؤية فراء الخرفان القروية الى جانب بذات الحرس ، والنساء في عصابة الرأس بجانب السيدات في زينة المجتمع ، وأحيانا يتعرض الناس في الزحام للاضرار .

وكانت الحفلة تجرى في الأصل بحيث لا يأتي كل أولئك الضيوف الا مشاهدين ، فتطورت مع الزمن بحيث أخذ البعض - تحذوهم روح الحفلة - يرقص وفي ثياب التنكر ، وكان بضعة من المهرة بين خدم القصر يقيمون المقاصف في الغرف الجانبية البعيدة فيشربون ويأكلون ، ويرى بينهم سكارى ، بل ان المأثور أنه كانت تقع مخالفات أخرى حتى حمل طغيان مثل هذه الحماقات القيصر آخر الأمر على أن يبطل العادة .

وبطرسبورغ مدينة موظفين ، وفي حياة الموظف موعدان كبيران يعود أحدهما كل شهر وهو اليوم العشرون فتصرف فيه المرتبات ويعود الثاني مرة في العام فحسب وهو عيد رأس السنة وهنا تستحق كل المكافآت وتعلن أيضا الترقيات والانعامات بالألقاب والنيشانات . وتوزع بالمناسبة أيضا أحقاق السعوط والخواتم الماسية . لكن هذا بدأ يصبح اذ ذاك عتيقا لا يتفق والشهرة الذائعة .

وفي كل من هذه الانعامات كان يجب أن يرشح المرء الى مرتبة أعلى ، وفي النهاية الى أعلى مرتبة . فالمرء - كما كانت لغة الديوان الروسي - يجب أن يقدم الى المكافآت . وكانت تعد العدة لهذا في نوفمبر وديسمبر .

وهنا كان يرتفع لغط يسوده الانفعال وحب الاستطلاع في

كل المصالح وكانت الأقسام - كل على حدة - تقدم مقترحاتها فيكثر السعى وتكثر الدسائس والتكهنات وتربو الآمال ، ثم يعرض الوزراء - كل في دائرة اختصاصه - قوائهم على القيصر يلتمسون موافقته .

ومفهوم انه كان بين زوار الحفلة التنكرية القيصرية موظفون عديدون وأن بين هؤلاء بدورهم كثيرون كانوا يعرفون بالضبط ما سيأتيهم به الغد من مكافأة ، ولهذا كان الزوار المتنكرون في قصر الشتاء يتركون أنفسهم غالبا على سجاياهم متجاوزين الحدود كما هو الشأن في العطلات .

وقد رغبت النسبية من ثم في أن تسهم في هذا المرح فحاول مافريكى أن يصرفها عن ذلك بأن أكد لها في الحاح أنها لن تجد شيئا غير الضوضاء والحر والزحام ، وأن المرء يقع هناك بين أناس أفظاظ من العامة ويتعرض لخطر الدفع جانبا في الغدو والرواح ، ولا يرى أحدا من الأسرة القيصرية أو من الحاشية ، لكنه بدا أن النسبية لم تتحول عما تريد ، بل ان مافريكى أفانا سيفتشس اضطر الى أن يوجه الى زوجه اللوم فقالت : ماذا تظن ؟ أتريد أن تفسد على أختى سرورها . وهل تنسى أنه لا يجوز أن تعكر مزاجها ؟ انها تملك الأطيان وليس لها من ورثة أقرباء غير آل بترنتييف ! فكره الزوج أن يرد . فقد كان يرى بذلك الغلو - الذى اعتاد المستاء أن يقع فريسته - أن مثل هذا التغيير فى عاداته يمكن أن يقصر حياته بحيث أن أعظم ميراث يمكن ألا يعود ذا نفع له .

ولم يجد شيء . . . ففي مساء الحادى والثلاثين من ديسمبر ركب مافريكى أفانا سيفتشس مع السيدتين الى القصر الشتوى وهو أشد ضيقا على التحقيق من جميع موظفى الدولة ، وقد أنعم عليه فى رأس السنة الفائت بنیشان ورفعت درجته ، فلم يكن ثم من

شئ ذى شأن يتوقعه فى اليوم التالى لكن كان ينتظره فى مساء اليوم
بالتأكيد كل تلك المضايقات التى وصفها لنسيبته ، وقد انتظرتة
حقا بعد مسيرة فى هواء الشتاء المثلوج ، وما أسهل أن يتعرض المرء
لبرد خطر ، وفى طريق العودة على الأقل ، ولو بقى فى المنزل اذ
ذاك لصح أن يجد الراحة فى فراشه المعتاد ، وكان أمله الوحيد ألا
تلبث السيدتان طويلا فيلم بهما التعب فتطلبيا العودة بالمثل الى
البيت .

فى هذه الظروف . . ألح مافريكى أفانا سيفتش على أن
يخرجوا فى الميعاد تماما ، وفى شئ من الحث المتواصل وصل الى أن
يجرى الأمر هنا على هواء وهكذا حداه الأمل فى أن يدرك مأواه فى
وقت معقول نسبيا .

وجرى كل شئ فى مبدأ الأمر مجرى حسنا ، فكان مافريكى
أفانا سيفتش والسيدتان أول من ترجل من الضيوف عن الزحافة
أمام القصر الشتوى .

وفى هذا الوقت يجب أن يفكر فى عادة من عادات البلاط
تجرى فى ليلة رأس السنة . وهى ترجع الى أيام القيصر اسكندر ،
وكانت تقضى بأن أول من يدخل قصر الشتاء وآخر من يبارحه يسأل
عن اسمه ومهنته ثم يبلغ الجواب عن هذين السؤالين الى القيصر فى
اليوم التالى . لماذا ؟ . هذا خارج عن الموضوع .

ولنفكر فى بيت الشعر الذى يحصى به الأطفال النجوم :

واحد ، اثنان ، ثلاثة

والأخرى واقفة معها

ولنفرض أن هذين الاثنين ، الأول والآخر ، يمثلان الجمهور
الهائل العديم الاسم ويجمعانه كما تحيط الألف والياء بجميع

الأحرف ، بل ان هذين لخليقان ألا يمثلان جميع الضيوف فيحسب
فى ليلة رأس لسنة ، بل كذلك شعبا بأكمله لا يحصى ولا يعد .

واذن فقد رجا ضابط منوب مافريكى أفانا سيفتشى عند باب
سالتيكوف أن يذكر له اسمه ، ودون هذا الاسم المحترم مع لقبه
فى سجل الحراسة ليعلن الى القيصر فى اليوم التالى ، وبعد ذلك
دخلوا ، وكانت القاعات ما تزال خالية فذهبوا يتسكعون فى
الصالات ، يتأملون النفائس وآيات الفن ، ويسر النسبية أن كل
شئ بعد الحريق أعيد ثانية بما يدعو الى الإعجاب ، وفى هذا التأمل
حانت الساعة التى اعتاد مافريكى أفانا سيفتشى أن يأوى فيها الى
فراشه المريح ، وباتت الأبسطة المصورة والسجاجيد وفرش الأثاث
التي كانت السيدتان تنعمان بالنظر اليها أقل استرخاء لاهتمامه على
التوالى ، واستولى وسن قاتل على عينيه وخدر أعضائه وذهنه ، وكان
وهو يدخل القصر قد اكتشف مكتبا جانبيا صغيرا خابى الضوء بجهازا
بأثاث جذاب من الوسائد ، فلم يكن ميسورا أن يركز تفكيره على
شئ غيره .

فقال : « طفلتى ، استميحكما عذرا . سأرتد الى هناك وأعطي
أحد الخدم « راشنا » لأبقى فى المكتب دون ازعاج . عاينا ماحولكما
ماحللكما ، فاذا اكتفيتما فتعاليا لتأخذاني ، وأتمنى لكما متعة
طيبة ، لا تقضيا ، لكنه محال أن أبقى بعد ذلك صالبا عودى . »
فأبدت النسبية ملاحظة ساخرة ، لكنها لم تكن أفادت الكثير من
صحبتة فلم يصدر لا عنها ولا عن أختها اعتراضات جادة ، وبعد
دقائق كان مافريكى أفانا سيفتشى قد وفر لنفسه الراحة وأطفأ
له أحد الخدم النور وأقفل الباب . ورسم مافريكى أفانا سيفتشى
على صدره علامة الصليب وغلبه النعاس .

فى تلك الأثناء امتلأت خارج المكتب القاعات ، وسرعان

ما أعلنت الموسيقى بدء جولة الحرامل . وليس معقولا بالنسبة لنا أن نرافق كلتا السيدتين في دورتهما ، وأيضا كلمة دورة لم تعد من أمد مناسبة في هذا المجال ، فهي تؤدي حركة منتظمة توجهها خطة وإرادة ، وقد كان عليهما أن يشهدا كثيرا وكان على الأخت الكبرى أن تعرب عن نيتها في مشاهدة اللوحات الأربعمئة المرسومة في قاعدة القواد لقواد فضلاء في الجيش والأسطول حسب الترتيب، والتأكد عند كل لوحة من شخصية المرسوم ، كذلك لم ينقصهما بعض ما تنبأ لهما به مافريكى أفانا سيفتش من متاعب ، وقد عزاهما عن ذلك أنهما التقيتا بمعارف تولوا أمرهما بل أسقوهما الشمبانيا . وكان بين هؤلاء المعارف رجل متقدم في السن تبدو عليه الوجهة ويحافظ على مظهره بصورة رائعة وكان يسمى السيد بورتو جالوف، ويشغل مركزا محترما في مصلحة الطرق ، وغدا - وهذا ما كان يروقه أن يحكيه - سينعم عليه بالطبقة الثابتة من نيشان ستانسلوس .

ومر الوقت سريعا ولم يريا الأسرة القيصرية تتجول فحسب بل شاهداها أيضا تتعشى ثم تنسحب بعد ذلك ، وأخيرا شعرا بالرغبة في العودة الى المنزل .

الهنا الذي في السموات ! كم قاعة في القصر الشتوى ؟ وكم مكتبا جانبيا وبابا وخادما ؟ ان الخدم شبيه كل منهم بالآخر ولا عجب . . فان البزة ليست وحدها الموحدة بينهم ، بل طولهم كان أيضا واحدا وقصة الشعر والشارب ، وحتى اذا كنت في قوتك وفي صبرك لتهتدى الى كافة المكاتب الجانبية وتدخلها فكيف تصل اليها وآلاف الناس واقفون أمامها كالجدار ؟ . وكيف تريد في هذه الفوضى المركبة من الناس ولوحات القواد والموسيقا والشمبانيا أن تتذكر أى خادم سألت من قبل ، وأى باب طلبت أن يفتح لك . وأى مكتب جانبي دخلت باحثا ؟ .

ويوصل السيد بورتو جالوف السيدتين الى البيت فى زحافته
التي يجرها جوادان كما ينبغي ، وفى انتظار رب البيت يشربون
قدحا من الشاي ، بل ان السيدة تيرنتيف لتعزف قليلا على
« البيان » للتسلية ، ولا يأتى مافريكى أفانا سيفتش ، ولا ضير فى
هذا ففى المكتب الذى شغله لا يمكن أن يحدث له شيء وقد كان
أيضا متعبا جدا ، وهذا مفهوم ، ذلك انهم أيضا متعبون الآن بالمثل
وهكذا يفترقون مع أطيب التمنيات بالعام المبارك ، كل شيء كما
ينبغي أن يكون .

وعاد مافريكى فى وضوح النهار الى بيته ، فقد أيقظه فى
الصباح رجل أبدى له أنه يريد أن يدهن الأرض فابتاع منه مافريكى
أفانا سيفتش نصف ساعة أخرى . أما عدة ساعات أخرى فلم يشأ
الرجل أن يمنحه ، وعلى كل فقد رجاء مافريكى أفانا سيفتش أن
يحضر له زحافة ، وعند البواب سئل مرة أخرى عن اسمه ولم يبق
له بعد هذا الا أن يصعد الى الزحافة لتنطلق به الى بيته .

وانقضت السنة التى بدأت على هذا المنوال بالنسبة لآل
تيرنتيف لا تلفت النظر ولا يستحق فيها الذكر سوى أن التعارف
الذى تم بين النسبية والسيد بورتوجالون ارتقى الى الخطبة
فالأزواج .

وحوالى نهاية العام – لا قبل ذلك – حدث شيء له صلة مباشرة
بمافريكى أفانا سيفتش ولم يكن نمتى اليه بعد ، ففى شهر ديسمبر
بالذات عرض وزير المالية على القيصر قائمة بالمرشحين للانعامات ،
فالتقى القيصر على القائمة نظرة عابرة وهز رأسه .

ثم سأل : « وتيرنتيف أيضا ؟ » .

فتكلم الوزير بضع كلمات دقيقة نوعا ما أثنى فيها على رئيس
قسمه .

فقال نيقولا : « كذا ، اذن هذا رأيك يا كونت . لكن لى أنا رأيا آخر . آه منكم أيها الوزراء . . ماذا تعرفون بالفعل عن رجالكم ؟ اذن فلتعلم أيها الآخ ! »

وظفق يحدثه عما يريد قوله منتقلا الى الفرنسية ، منمقا كلامه بكلمات :

« يا للشيطان ! أرجوك يا عزيزى ! وى ! انظر ! »

وكان يزهى نيقولا أن يظهر انه أعلم من وزرائه ببواطن الأمور ، وكان يرى أحيانا أن ذاكرته ضعفت ، ويعتقد أنه لا يصح أن يدع أحدا يلحظ ذلك ، وهكذا كان يفيد - كما يميل كثير من أصحاب السلطات - من الفرص التي تبدى منه ذاكرة تستحق الإعجاب ، وقد احتفظ أكثر من أحد عشر شهرا باسم تيرنتييف فى مفكرته ، ومن عليه أن يمارس سلطة ويبديها فى الوقت نفسه يميل الى أن يسلك مسلكه من يسبر الكل بجزء . ويتخذ مما سمع أو رأى من شيء اتفاقا مشخضا له ، ولعله لا يستطيع أوتقراطى بل قومندان آلاى أو ناظر زراعة أو مدرس أن يحتمل مركزه بغير هذا ، فهو يحتاج الى أن يتصور أنه عليم كل العلم تقريبا بكل شيء وهكذا لم يكن نيقولا الأول يرى أنه عرف شيئا اتفاقا ، بل كان من رأيه أنه فات علمه على الأكثر شيء ما اتفاقا .

« أول مرة ذكر لى فيها اسم وحيد : فأى انسان لابد أن يكون هذا ! لقد طلبت آنذاك الاطلاع على ملفه الشخصى ، فمن هو ؟ لابد أن يكون بالبديهة خيالا قديما فى « الهوسار » . . ومن يعلم لماذا استقال ؟ . . الراجع أنه ارتكب شيئا تجاوز مفهومه عن عمل الخيالة ، ولا تشتمل الأوراق بطبيعة الحال شيئا عنه ، لكن أعلم علم اليقين كيف يتستر خيالىتى بعضهم على بعض ، كل شيء فى موضعه ، ومغريات الخيالة لا تناسب وزارة المالية ، فالرجل من عشاق الليل وليس من العاملين » .

وتناول القلم وشطب اسم تيرنتييف شطبة قوية .

من ذلك الحين درج القيصر كلما جاءه وزير المالية ليحضره في شئونه أن يسأله عند الانصراف وعلى وجهه ابتسامة واهنة تنم عن رضائه عن نفسه : « والآن ماذا يفعل الخيال ؟ » .

وكان هذا يضايق وزير المالية ففي ذات يوم استدعى مافريكي أفانا سيفتش وأفهمه أن يقدم استقالته .

وضمر مافريكي أفانا سيفتش كالنبته التي نقلت الى أحوال غير صالحة ، وعلى كل فقد كان خليقا أن يحصل - استنادا الى شهادة لامعة تنوه بخدمته - على مركز كبير كمدير بنك أو أى منصب كبير آخر ، لكنه أولا لم يكن يرغب فى ذلك اطلاقا لأنه جرح جرحا شديدا فأراد أن يبقى كما هو ، وثانيا لأنه لم يتلق شهادة التمجيد التى كان يستحقها ، ذلك أن مثل هذه الشهادة لم تكن حقا محتملة ، لكنه لم يكن من المحال بحال من الأحوال أن تقع مثل هذه الشهادة تحت نظر القيصر الذى اهتم مرة بمافريكي أفانا سيفتش بهذه الصورة التى لا تسر ، فيكون ذلك اتفاقا محفوبا بالمغامرة ، فيغضب الوزير بذلك وهو ما كان حقيقا الا يؤثر على مركز الوزير الشخصى فحسب ، بل أيضا على شئون وزارة المالية وما يعده الوزير من اصلاح مالى .

مل القيصر نكته النموذجية فلم يعد يذكر مافريكي أفاناسيفتش . . لكن نيقولا - والله يعلم لماذا - تذكره ذات يوم وسأل : « ماذا يفعل الخيال حقا ؟ »

فأجاب الوزير : « لقد مات يا صاحب الجلالة ، » .

فرسم نيقولا الصليب على صدره فى غير اكتراث وقال كالعادة : « يرحمه الله » . ثم زاد على ذلك قوله . « كان ينبغى أن

يبقى بين خيالة « الهوسار » ، فكل امرئ يجب أن يعرف مكانه .
وكنت خليقا أن ألفت اليه يوما فأهتم بسيرة حياته ، فاني لا أستغنى
عن خدمات « الهوسار » الأشداء . ولكن ليس في وزارة المالية ،
يجب أن يكون كل شيء في موضعه ولا بد من النظام . ولكن بأى
شيء مات ؟ »

فلم يرد الوزير أن يجيب الجواب الذى كان قمينا أن يطابق
الحقيقة بل قال كيفما اتفق : « مات غمًا . مات بالسكتة القلبية
يا صاحب الجلالة » ! « بالسكتة القلبية ؟ هذا ما افكرته دائما
فى الراقص .. أول من يدخل وآخر من ينصرف .. ولا بد أنه كان
أيضا سكران .. انى أعرف بالتأكيد هذه العادات القديمة عند
« الهوسار » . »

ولو عاش مافريكى أفانا سيفتش على الأقل الى أن يتولى الحكم
نيقولا الثانى الذى لم يسمع بحسكايته لبات معاذ الله فى النهاية
وزيرا للمالية ، لكن العناية الآلهية لم تجد فيما يظهر أن هذا أمر
مرغوب فيه .

وقد عاشت هذه الحكاية بعد ذلك فى جميع أساطير الخيالة
فاذا قصت على مستفيد مستجد قل أن ينسى الراوى أن يضيف :
« يستأهل » . فكان المستفيد يقول عندئذ دون شك : « .. وجدير
كل الجدارة بالملاحظة » .

الشريط الحزيري

« Das Florettband »

أسماء الشخصيات :

Mortimer	مورتيمر
Schroeder	شرودر
Walinstein	فالنشتين
Max	ماكس

ان الناس جميعا على هذه الأرض ممثلون بدرجة ما . كل يختار مسرحه وجمهوره ، ويعرض كل ما يستحثه طموحه من قوى ليفوز بتصفيق الصالة التي اختارها . يقابل ذلك الاسكندر الأكبر الذى كان يفكر فى تصفيق الأثينيين وهو على ضفاف الهندوس ويرى فيه أجمل جزاء على جهوده .

(نابليون الثالث - شذرات من التاريخ الانجليزى)

فى الوقت الذى كان فيه دوستويفسكى مشغولا بتصوير شخصية راسكولينكوف والاخوان سيمنس مشغولين باختراعاتهما الكهربائية وهندنبرج مشغولا بالاستعداد لامتحان حامل العلم وذلك فى العقد السادس من القرن الماضى كان فى مسرح المدينة فى ريجا ممثل شاب من الالزاس نسيميه ومرتيمر لنعين فى الوقت نفسه اتجاه رغباته ، وكان رأى مورتيمر هذا فى كفايته عاليا نحدوه آمال بعينها على وجه الدقة ، لكنه كان أحيانا يستخدم فى أدوار صغيرة فى روايات حديثة توائم الشهرة كصديق لأبطال من الشباب يظل ينعم بترائهم الى أن يعجل بالتخلي عنهم فى اللحظة التى يدركهم فيها الفقر ، أو يظن أنه ألم بهم ، أو الى أن يطرده ريبعدوه عنهم بعد تحول مفاجئ فى أسلوب تفكيرهم الى ما هو أكثر جدا ، فهذه الحرفة التى خفت مزاولتها فيما بعد كانت تعرف فى ذلك الوقت بحرفة الخلان الكاذبين . ومن ظل يفيد منها مدة

كافية بما يبعث على الرضا ، وسعه أن يأمل فى أن يرتفع الى مرتبة
الناعمين .

وشعر صديقنا الألزاسى بأنه لم يخلق ليكون لا من الخلان
الكاذبين ولا من الناعمين ، فقد كان مقتنعا بأنه لا بد أن تواتيه
الفرصة يوما ما ، لأن يظهر حميته وقوته فى دور كبير كدور
مورتيمر فتنتطلق سيرة حياته بغتة من المنخفضات العديدة اللون الى
أعلى ، لكن بدا أن هذه الفرصة بالذات لا تريد أن تواتيه . فكان
يلقى اللوم تارة على عدم فهم المدير وتارة على نكايات الجاسدين بين
الزملاء ، وتارة - وهو مكتئب - على سوء حظ يجثم الآن فوق
كيانه ، ولعله فى تلك الأثناء - وكيف يريد المرء أن يثبت ذلك
اليوم ؟ - كانت المسألة ببساطة أن تلك الخاصة التى يصعب تعريفها
لم تكن بالذات قد ظهرت على مورتيمر وهى التى لابد للممثل منها
إذا شاء أن يأسر النظارة ، هذا الى أن المسرح الفرنسى الذى سعى
اليه فى بداياته لم يرد أن يتقبله لأنه لم يستطع الاقلاع عن اللهجة
الألزاسية .

واذن فيجب أن نترك المسألة عن قدرات مورتيمر مفتوحة ،
وهذا أدعى الى أن تشغلنا أكثر : مسألة طموحه فى سكون ، لكننا
هنا أيضا لا نصل بآدى ذى بدء الى رأى يعينه على وجه الدقة ، ويبقى
مؤقتا سؤال مفتوح هو : هل هذا الطموح فى الواقع - كما يعتقد
مورتيمر - كان ينشد بطبيعته وضرورته اكليل الغار على المسرح ؟
أو أنه كان لا يستطيع بالمثل السعى فى ميدان آخر الى النجاح الذى
يعينه على توكيد ذاته ؟ .

وكان مورتيمر ، تبعا لمركزه الثانوى ينقد أجرا زهيدا . فلم
يكن فى الأدوار التافهة التى كانوا يسندونها اليه ما يحفظ غالبا
عن ظهر قلب فكان الوقت متسعا له ، يفيد منه فى توسيع دائرة

معلوماته في اللغة واعطاء دروس في المحادثة الفرنسية . وقد نمت
هذا دخله وأعاناه على الحياة ، واذا كان قد شب ملما بلغتين فقد
أوتى القدرة على التمكن من اللغات الأجنبية بسرعة وهو ما كان
يرى حقا أنه يعبر عن موهبته للتلاؤم ، لكنه في الوقت نفسه كان
تعبيرا عن حاجته الى التلاؤم ، تلك الحاجة التي لا تضير طبيعة تنزع
الى فن التمثيل ، وقد أكمل معلوماته في الانجليزية واشتغل
بتحصيل الروسية واللاتفية بوصفهما اللغتين اللتين كانتا متداولتين
في البلاد الى جانب اللغة الالمانية . لكنه لم يزاوُل هذا كله في غبطة
حقة ، فقد كان الأمر عنده سدا لشغرات .

وقد وصل أمره مع الوقت الى أن كان بعض العمال الموسرين
يجتذبونه كلما جدت مناسبة الى القيام بأدوار تمليها الهواية في
الأعراس الماسية والاحتفالات النقابية ، أما في دوائر المجتمع الراقى
فلم يبلغ شيئا وان كانت هذه الدوائر مفتوحة في ريجا للممثلين
بقدر ما تسمح به أصرم مفاهيم العصر في ألمانيا .

وكان الناس في مدن ألمانيا معنيين آنذاك بمجهودات السيد
فون بسمارك في سبيل تقرير زعامة بروسيا ، وفي سبيل نقابة
عمال لاسال وشئون البرلمان والدستور ، وكانت ريجا تابعة
للامبراطورية القيصرية الروسية فلم يكن من المستحب الكلام في
السياسة فاذا كان في المجلس سيدات حرمت بتاتا أمامهن .

وعادت حماسة المجتمع بأكملها ، فانصرف عن الشؤون العامة
الى المسرح كما كان المؤلف أن يقع في مثل هذه الظروف ، وهذا
الشغف - وقد كاد أن يبلغ حد الهوس - أمكن أن يعزى فوق ذلك
الى تقليد دام عشرات السنين . فمنذ ثلاثة أرباع القرن تقريبا
كانوا يملكون المخطوط الأصلي لدون كارلو . فاذا مثل وجدت على
رقعة المسرح : النص وفق المخطوط الذي يمتلكه مسرح المدينة .

فاذا عرض « مبيت غرناطة » أو غنى أو رنم أو ارتفع صوت رباعى رجال فى مكان ما : « هذا هو يوم السيد » تذكر المرء الملحن كرويتزر الذى كان قائد فرقة مسرح المدينة الموسيقية ودفن فى ريجا - دون أن يفطن - لو صح هذا - الى أنه ليس فى هذا فضل لجمهور ريجا ، وفى عهد قيادة فاجنر للفرقة الموسيقية كان الشاعر الجوال هولتاي مديرا للمسرح تبعده المدينة ، فلما ماتت زوجته وهى نساء - وكانت ممثلة شغف بها الناس كثيرا - شيعت لها جنازة كانت أعظم ما شيع فى القرن ، ومشى خلفها الى جانب زوجها الأرملة حاكم اقليم البلطيق العام ، كان هذا ما يزال حيا فى الذاكرة كما لو كان قد وقع أمس فقط ، والى هذا كان للمدينة اذ ذاك دار المسرح الجديدة الجميلة .

وكان المال يسيل غزيرا ، والنساء يسعدهن الحظ ، لكن ماذا جناه مورتيمر من هذا ؟ . . لقد كان يلزمه سوء الحظ ، ولو كانت السماء صافية صفاء بالغ ما أراد هو وأراد لها اله الفن المسرحى من صفو .

وبغثة غرب فى تلك الأثناء طالعه السوء وطلع نجمه . ولم يكن ذلك يبدو هكذا بادىء الأمر . وكان القسيس والمدرسون الأوائل يطالبون بما يحدث على الفضيلة وما يدخل فى الكلاسيك فاندسوا خلف لجنة المجلس الخاصة بالمسرح وأعلن المدير عن فالنشتاين . وكان أول مساء مخصصا للمعسكر ولبيكولومينى . وكان هذا المدير يعانى آلاما فى المعدة ، مما كان يخلق منه كثيرا رجلا منحرف المزاج . وكانت عاداته أن يخاطب كل من يريد ابلاغه خبرا سيئا بقوله : « يا صديقى العزيز » . . وقد أسند الى مورتيمر دور جوتس .

والناس تعرف هذا الدور ، أو على الأصح لا يعرفونه ، لأنه

ليس فيه ما يعرف • فجماه ما ينطق به الجنرال جوتس ، وهو سيد صموت ، هو تسع كلمات لا تبلغ أولا عن آخر أكثر من ثمانية أبيات ونصف • وعباراته ليست ذات شأن ، فأهم ما يقوله : « أيها الأخ ، شهية طيبة ! • • معذرة ! • • لست قادرا ! • • يا سيدي الكونت ، اسمح لي أن أقدم احتراماتي » •

وقال المدير : « لا تقلب وجهك هكذا يا صديقي العزيز فجوتس لشيل ليس جوتس لجوته وهي فروق ما بين الشاعرين • فلا تجعلني مسئولا عن ذلك • ولن تدرس في الدور شيئا كثيرا • وهذا يستحق ، ولو وددت أن يكون لي من الفراغ ما لك » •

فتمتم مورتيمر شيئا ينم عن الرضوخ والتبرم •

فقال المدير : « ماذا تريد إذن ؟ انك تتلقى فوق ذلك دورا في المعسكر • دور هوسار الحرس الخاص أو متطوع السنة الواحدة في أورطة النقل الثالثة • وستسمع منى عن ذلك شيئا نهائيا » •

وغدا مورتيمر الى بيته كسير القلب ، حتى أمله في المعسكر ليس فيه ما يعزيه ، ففي هذه القطعة لا يظهر كما هو معروف سوى الكومبارس ، ومهما تكلم هؤلاء فلن يعدوا أنهم كومبارس ، وحتى الراهب الفرنسيكاني يظل نكرة لا يخرج عن تنكره •

لكن نحس الطالع يغرب الآن ويطلع نجمه : فقبل التجربة الكبرى يستدعى مورتيمر الى المدير ليقول له : « انى حائق جدا يا صديقي العزيز • لقد أخلى سبيل مكس • والسيد نويمان يعانى تقلصا في العضل ولا تدخل رجله في حذاء فوق الرسغ ، ويقدر نه الطبيب أسبوعين ، والاعور عند السيد مونتي ملتهب ، والسيد شرودر أكثر بدانة مما يجب ولا بد لي أن أجربك ان خيرا وان شرا • وليس في ذلك خير كثير يا صديقي العزيز ، بل لعسله شر كثير

ولا مفر ، فهل تثق بنفسك ؟ أيمن أن تحفظ هذه المقاطع الآن في حينها ؟ •

فصاح مورتيمر : انى أحذق الدور يا حضرة المدير •

« كذا ؟ حسن •• اذن اسمعنى •

وكان مورتيمر قد درس دور مكس كبديل ، درسه بدقة وعض عليه بالنواجذ كما يدرس كل الأدوار التى تدخل فى وفاضه • فاتخذ وضع الدور وبدأ •

« أيها النهار الجميل اذا كان الجندى فى النهاية •

وعندما أعلن فى النهاية اليه ، الى فالنشتاين ، أنه يريد أن يريق آخر قطرة من دم قلبه ، خيل اليه أنه مورتيمر فى الفصل الرابع ، وأنه يستل الخنجر ويصيح متحمسا : « ماذا تريد أيها العبد الرخيص ، رقيق الطغيان ؟ انى أسخر منك ، انى حر •

ومكس ومورتيمر دوران كانا يلقيان اذ ذاك من علو التقدير ما يلقيان اليوم ، ولعل خطاب مورتيمر الحماسى ما كان ليستهوينا ، لكن مثله كان يستهوى أجدادنا •• وقد كان أجدادنا يؤلفون جمهور مسرح المدينة فى ريجا • ومن ثم لم يخاطر المدير فى الحقيقة بشيء •

كان ينظر الى خارج النافذة فلما سكت مورتيمر قال من دون أن يستدير اليه :

« يعلم الله أن السماء ستمطر ثانية • اذن حسن •• لا مانع عندى أن تمثل هذا الفتى الذى جعلوه قبيل الأوان كولونيل • فلا مناص • ولن أستطيع تنحية فالنشتاين بعد الآن •• أما جوتس فأستطيع أيضا أن أجعله امرأة من القائمات على خزانة الملابس

تمثله ، وأخيرا يمكن أن يشطب دوره أيضا . فالمسرحية على كل حال تشتمل على أكثر مما يجب من الجنرالات . . أليس كذلك ؟ » .

فلما تولى مورتيمر ناداه المدير وقال له : « لكن أفرغ قصارك . فان رجلا عظيم القدر سيكون في مقصورتى » .

فأجاب مورتيمر : « حسنا جدا يا سيدى المدير » . . وكانوا فى ذلك العهد ما يزالون يقولون « حسنا جدا » . . وأنا شخصيا سمعت « حسنا جدا » مرة واحدة فى حياتى . . كان هذا أثناء أن كان نسيبى يتلو فى محيط الأسرة فصلا من احدى روايات فوننتان . وكان وقع التلاوة « حسنا جدا » .

وسرعان ما تحدثوا بأن الرجل العظيم الشأن كان مديرا فى مكان ما فى ألمانيا لمسرح بلاط الغراندوق ، وكان ابنه سكرتير مفوضية فى مفوضية الغراندوق فى بطرسبورغ ، وقد تزوج منذ فترة وجيزة ، وقد عاد المدير من العرس الى ألمانيا . وأقام فى طريقه بعض الوقت فى ريجا .

فهزت مورتيمر آمال جريئة ، فانه بدلا من شؤم الطالع الغارب لم يكن ثمة يمن واحد للطالع بل مجموعة كاملة فى الطوالع الميمونة ، كان مدير مسرح البلاط الغراندوقى يؤلف مركزها . فسيلحظ اسم مورتيمر . . ربما لا يكون فى الحال ، فالأشياء التى تتصل بالغراندوق تحتاج الى وقت لكن هناك أيضا أشياء لا بد أن تتضح على الفور فاذا راق مورتيمر فى دور مكسى فى رواية بيكولومينى - وكيف لا يروق ؟ - فسينتزع الاستحسان فى منظر مكشوف - اتضح أنه سيسمح له بعد ذلك ببضعة أسابيع أن يمثل مكس أيضا فى « موت فالنشتاين » وسيقرأ الناس فى الصحف : « لكن أعظم مفاجأة فى المساء كانت تمثيل السيد مورتيمر ونحن

نتساءل : لماذا أخفت عنا الادارة الى الآن مقدرة بهذا القدر ؟ • عبثا نحاول تفسير ذلك (وربما قيل فى هذا الموضع : وضوح لى يا كونت أورندو ••) على أنه لا نفع أبدا فى الوقوف عند الماضى ، ولنا أن نأمل بالنسبة للمستقبل أن نلاقى السيد مورتيمر فى أدوار تناسب موهبته •

وغربت الطوالع الميمونة وطلع نحس الطالع • كان الجو عند تحول مارس الى ابريل عاصفا ، رطبا ، قاسيا • فكل من كان فى مقدوره شىء أصابه برد أو التهاب له حلق وألمت به الحمى ، وكانت مثل هذه الأمراض تعرف اذ ذاك بالانفلونزا • وكثيرا ما يقرأ فى التراجم الأقدم : مات بالانفلونزا بعد أن قدر عليه أن يعانى قبل ذلك ألم فقد رفيقة حياته ، فى حمام الاسكندر متأثرة بحمى حامية فى المعدة •• ثم بطل استعمال الكلمة وكفرت هذه التراجم فى فصلها الأخير على الأقل بأن أصبحت غير مفهومة ، وظهر اسم المرض ثانية ، مدهشا علماء اللغات والمرضى وآل المتوفين على السواء • ظهر فى سنة ١٩١٧ أول ما ظهر فى غضون الحرب ، وهو ما ظن أن له صلة بأنه كان على رأس الهيئة الطبية العسكرية أناس مسنون انتهزوا الفرصة لانعاش ذكرى من ذكريات الشباب •

ومورتيمر أرشد مما يخلق بشخصيتى مورتيمر أو مكس اللتين يمثلهما ، فتغرغر وتناول حبوبا واقية • وفى اليوم السابق للتجربة الكبرى استيقظ محموما أجش الصوت يتألم من رقبته • فجرى الى الطبيب ، ففحصه ومس بفرشاته موضع الألم ووصف الدواء • لكن يبدو فى الحق أن لبعض أعضاء الجسم البشرى نزعة عفريتية ، اذ يأبى الطاعة على صاحبه اذا ما كان عليه أن يعمل لحيره بكل همه ، ويعرضه للفضيحة واليأس فلا يكون عليه عندئذ أن ينفذ أمرا عداثيا له موجهها اليه فى خفاء وخجل •

وساعات حالة مورتيمر وهزته رعشة البرد ورنحت كتفيه هنا وهاهنا وأصابه دوار ، وشعر بدمه يغلي ويدوى فى أذنيه ، ولم يطرأ تغيير ، وجعل يتغرغر ، لا على سبيل الوقاية الآن ، بل على سبيل العلاج ، وكان يرقد معظم النهار فى فراشه ولا ينطق بكلمة نافلة مع أحد ، ومع ذلك فقد كان يحس أن مقاومته تنهار من ساعة لأخرى ، وصمد فى المسرح للضرورة بالتحامل على نفسه وبالأدوية والمشروبات الروحية ، فاجتاز التجربة الكبرى . وكان يرى أنه نجح أيضا فى التجربة العامة إذ يحاول اخفاء ما يعانى .

لكنه أثبت للمدير أنه كان مخطئا فى هذا الرأى ، ذلك أنه قال له :

« يلوح لى يا صديقى العزيز أن صوتك ليس على ما يرام فالزم على الفور فراشك واعرق . » وغدا صباحا أسمع صوتك ، فإذا لم يتحسن فلن يكون هناك مهر من اللجوء الى السيد شرودر ، فهو ليس آخر الأمر بهذه البدانة اطلاقا ، هذا الى أنه قد خطر لى أن مكس قد بات كولونيل ، ولا يصح أن يكون للكولونيل مظهر الملازم . »

فلما أراد مورتيمر أن يغادر المسرح بعد التجربة الكبرى رافقته الملقنة فى الرواق ، وهى عجوز طيبة القلب تحبوه بميل الأمهات أو الحالات ، وقد كانت فى مجرى حياتها ساذجة بظلة بين الأمهات وعجوزا مضحكة . وقد احتفظت فى كيانها من كل هذه الطبقات بنصيب .

وصاحت : « يا الهى ، ما خطبك ؟ كيف تبدو ؟ » .

فأراد أن يصرفها صامتا ويتولى عنها ، لأن كل كلمة يمكن تجنبها كانت فى رأيه مما لا يغتفر . لكنه شعر اذ ذاك بحرارة قلب العجوز وتواضعها وبساطتها ، وشعر بأنه يريد أن يسلم نفسه

للسقوط فعليه ألا يعارض وأن يترك المسئولية لسلطة الامومة ورعايتها على نحو ما يفعل الأطفال . واطرح ضبط النفس ، وبدا له أن من السعادة ألا يضطر بعد الآن الى كبح سعاله الأليم وأن ينفذ عن نفسه بدنه كله .

جعل عندئذ يتكلم ، تقطع كلماته حقا نوبات سعاله التي استسلم لها في غبطة الذي يذل نفسه ، وشكا من الشكوى لأنه لا مندوحة له عن أن تكون هذه حاله على الدوام اذا ما أبدى الحظ في النهاية بصيصا مرة . أنه لا يصلح لشيء سوى الدمار .

وكانت الملقنة وهي تصغى اليه توجه اليه نظرة مفعمة بالعطف والرضى معا ، فهي لم تشهد فحسب شقاءه الحادث الذي يستقر فوقه كطبقة من الصبغة الكدرة المختلطة بالقذارة ، بل شهدته نفسه تحت هذه الصبغة كما كانت تفعل من قبل ، وكان جميل البنية ، عضلا ، نحيفا ، منتظم الملامح مليئا بالحياة . لكن كانت له أيضا تلك الشدة العنيفة التي يتبينها المرء في ملامح من يمتلكهم الطموح من الشبان وان لم يحالفهم النجاح ، وهو تعبير يمكن أن يجعل الوجه الفتى جذابا ومؤثرا في القلوب في الوقت نفسه ، وليكن أيضا أن يستولى على التأمل شيء من قبيل العطف المظلم الموجه الى المستقبل في صيغة السؤال ، عطف هو في الوقت نفسه من نصيب كل المقدرات البشرية المتداعية وانزلاقها الى العادى ، وعلى كل فلا ينبغي أن نفرض أن مثل هذا قد داخل وعى الملقنة الواضح .

وقالت له بعد تردد قليل : « اسمع ! انى أعرف دواء لك . لكن لا تضحك منى » .

فأجابها عاتبا : « يا الهى ! انى لا أجد في نفسى ميلا الى الضحك . لكن ما هذا الدواء الذى يمكن أن يأخذ بيدي عندئذ ؟ ان نصف الصيدلية قائم عندي فوق منضدة الليل ، ان خير ما أفعل

هو أن أعلن أنى مريض وأتوجه الى الفراش ، فاذا نهضت ثانية بعد أسبوعين أمكننى أن أعود ثانية الى تمثيل دور جوتس » .

فقلت وقد بدت كأنها قد تحولت تحولا تاما من فرط ما أبدت من غيرة وهمة . ان ثمة شيئا آخر ، فقط لا يصح أن يقابل باللغو والا أضاع ، كما يقال . فى صاحبة موسكو حانوت لبيع الشرائط ، عبارة عن حجرة خشبية غير ظاهرة فى زقاق بعيد نوعا ما عن المخازن الحمراء ، لكن لا تقلب وجهك هكذا ، فان فى وسعك أن تعتمد على ما أقول ، فقد جربته بنفسى غير مرة ، وكذلك جربه بعض معارفى » .

وازدادت ملامحها تأثرا ، وحركات يديها حيوية ، كأنما هى ما تزال واقفة على المسرح تقوم بدور من أدوارها كقوادة أو محرصة أو دساسة ، وعلى كل كمرشدة لمصائر الغير التى تحب أن تدخل عليها العزاء ، أجل لقد أدت أمامه مشهدا صغيرا صادقا ، مشهدا من دورين ، ولعله كان لهذا بالنسبة لها شأن يمكن أن يكون لأحد مشاهد مورتيمر فى مارى ستيوارت من شأن ، وفى النهاية - وهذا ما رآه مورتيمر فيما بعد ، وما يمكن أن يكون الواحد أو الآخر منا قد تذكره - فى النهاية كانت قد فتحت الموضوع بأكمله لمجرد أن تتيح الفرصة لمثل هذا العرض الذى عرضت ، لكن مورتيمر لم يكن - كما أن الواحد أو الآخر منا كان خليقا ألا يكون - محقا فى هذا التفكير .

قالت : « انتبه ! الآن ، ادخل ! » وتراجعت بضع خطوات ، كما لو كانت تتحفز ، وبدأ المشهد .

هكذا يجب أن يحدث بعد أن يدخل المرء ذلك الحانوت الحقيقى فى صاحبة موسكو ، امرأة قصيرة القامة ، بيضاء الشعر ، واقفة خلف خوان البيع تنحنى الى الأمام وتسأل فى صوت مرتعش

قليلا : « ماذا يروق السيدة ؟ » فتتخذ المشتري هيئة من يتظاهر بعدم الاكتراث وتجيب بصوت خافت : « أريد قطعة من شريط حريري أسود » .

ولا حاجة بالمرّة الى أن يقول المرء بعد هذا شيئا لا عن طول الشريط ولا عن عرضه ، لا حاجة به اطلاقا الى السؤال عن الثمن ، ولا تنطق البائعة بكلمة ، بل ان هيئتها لتعبر أيضا عن عدم الاكتراث المصطنع الذي تبدى وراءه التفاهم والتواطؤ بصورة مستسرة فتفتح قمطرا وتأخذ منه الشيء المرغوب ، مقصودا من قبل ، وتقدمه من فوق الحوان دون أن تهتم بعد ذلك بالعميلة الغريبة بل دون أن ترفع اليها بصرها ، وتتناول هذه طرف الشريط الاسود صامتة وقديسه وتنصرف دون أن تدفع أو تشكر أو تحيي .

قالت الملقنة ، بشكل مصطنع الى حد ما : « اذا ما أراد المرء أن يدفع أو يشكر ضاع المفعول . هذا أكيد . وهكذا فكرت في أن خير ما يفعل المرء ألا ينبس ببنت شفة فتجري الامور مجرى مأمونا ، والأمر بحذافيره مضحك بطبيعة الحال ، لكن أكثر بعثا على الضحك أنه يفيد حقا ، وليس في ذلك شك مطلقا ، وطبعاً اننى لم أشأ أن أصدق ذلك في مبدأ الأمر ، ويجب أن يطوق المرء بالشريط عنقه ليلا ، ويضعه في جيبه بالنهار فاذا كان شيء بالحنجرة أو بحة في الصوت أو التهاب في الحلق فان كل الآلام والشكاوى تزول . »

فحملق مورتيمر في الارض ولم يقل شيئا ، وجعلت العجوز تلاحقه بالاقناع وتصف له المكان مغتبطة بالقول . وبغثة تناول يدها وهمس اليها بصوته المبحوح : « اذن سأجربه بحق الشيطان » . ثم انطلق وهو يسعل .

بينما يسرع مورتيمر الى ضاحية موسكو ليبحث عن حانوت تباع فيه الشرائط في أزقة بعيدة غير مرصوفة ، تغطيها الثلوج

وتغص بالبرك بين بيوت خشبية عوجاء مدهونة بالألوان الزاهية ذات طبقة واحدة - بينما هو يسرع ويبدو من المناسب أن نتفاهم ببضع كلمات عن طبيعة الخرافة فهذا يكون أيضا مسلك مورتيمر مفهوما وربما ألقى فى الوقت نفسه شعاعا صغيرا من الضوء على طبيعة الانسان والقدر .

طبيعى أن مورتيمر عسرف كما نعرف جميعا أن الشريط الحريرى - اذا وجب الكلام عن المنسوجات الشافية - أقل نفعا من أربطة « الفانيلا » ، وأن كل شئ قيل كان خرافة سخيفة بل الراجع أن الملقنة عرفت هذا بأسلوبها الخاص . لكن هذه المعرفة لا تنفى الاعتقاد ، ومن السخف الجدال فى كيف يؤمن هذا أو ذاك من الأشياء ، فانه لا بد أن يلحظ أن هذا يخالف العقل ، والذين يتكلمون على هذا النحو ينكرون طبيعة الخرافة . غير أنه تكمن فى الانسان عندئذ نزعة الى تصديق ما ينافى العقل بالذات والى مزاوله لعبة خاطفة جادة . وعنصر اللعب هذا كامن فى كل خرافة . فمن يتأرف خرافة يعتقد بطبيعة الحال فيها ، ولكن بقدر ما فحسب ، وليس بالمعنى الذى يعتقد به فى جدول اللوغرتمات ودليل العناوين وبيان أسعار البورصة ، ويذيع الناس عن الممثلين وأصحاب الطبائع الفنية أنهم نزاعون الى الخرافة ، ويخطيء من يعدهم من جراء ذلك أغبى ممن عدمو الخيال ، ومورتيمر لم يكن حقا ممثلا فحسب ، بل كان أيضا مريضا بالحمى وانسانا فوق ذلك فى محنة ، يمتلكه القنوط ويرى أنه يقف مواجهها تقرير مصيره ذلك أن هذا كان مؤكدا لديه ، فلقد جاء الى التمثيل وهو يظن أنه يلعب ورقته الى النهاية ويمكن أن يكون المجاز هنا فى موضعه ، لأن الشخصية التمثيلية لا تبدو كافية فى الانسان وخيافته فحسب ، بل أيضا فى المصير ، فاذا لم يكسب الورقة سلم بهزيمته ونطق بحكمه نهائيا . ويمكن أنه لم يفكر كثيرا فيما قد يكون للشريط الحريرى من تأثير طبى ،

وأنه شعر هنا بشيء يصيبه لم يكن ميالا الى تناول حياته كجالب
للشفاء بقدر ما كان ميالا الى تناولها كجالب للهناء . والانسان في
الحمى يفكر تفكير الأطفال على غرار أكثر مجازا من المؤلف ولعله قد
داخله أن مثل هذا التطوع بالاقتراب من دائرة الحساد والموت
والامراض كالذى يتم بالحصول على الشريط الحريرى الاسود ، يمكن
أن يخفف شيئا من تهديد القوى المظلمة ، ألسنا جميعا نمد أيدينا
الى السخيف اذا لم يثمر المعقول ؟ وأيضا لقد راقه المشهد على الرغم
من حالته النفسية البائسة ، راقه المشهد الذى مثلته الملقنة على أنه
دار فى حانوت بائع الشرائط ، والمشهد الذى سيشتبك هو نفسه
فى تمثيله اذا ما قرر أن يذهب الى هناك ، واذن فقد قرر مدفوعا
أيضا من تصوره أنه بعد الكمادات والحبوب والمس بالفرشاة
سيتولى شيئا جديدا .

وما نكاد ننتهى من هذه التأملات حتى يظهر مورتيمر فى
غرفة الملقنة - تلك الغرفة المتواضعة حقا - محملا بالموثرات ، غاضبا
خائر الهمة معا .

فصاح مورتيمر : « أى شريط حريرى ؟ خيبة من حول العنق
وشنق ؟ » . لعله بالغ فى التعبير عن قنوطه على نحو ما يفعل
الممثلون .

وطبيعى أنه لم يرو قصته كما يفعل كل منا ، والأصح أنه
أيضا مثل الآن المشهد ذا الدورين ، لكن الدور الذى كان عليه أن
يؤديه بخلاف دوره هو لم يكن دور امرأة بيضاء الشعر بل دور
بائع مستدير الوجه أشقر الشعر .

« بم يسعنى أن أخدمك ؟ » .

« قطعة من الشريط الحريرى الاسود » .

« أهى لحالة حداد ؟ وما عرضها ؟ فعندى أشرطة مختلفة أريك إياها » .

فلم يحر مورتيمر جوابا . وأشار للبائع الى طول الشريط ببضع حركات غير معينة فى يده ، وباعد أخيرا فى ارتبائه بين الإبهام والسبابة . فابتسم البائع بأدب .

وقال : « فاهم ، فاهم ، هذا القدر هو ما يلزم للذراع والقبعة وعندى لذلك أنواع مختلفة » ، ويبحث فى أدراجه ثم يبسط ما أخرجه على الخوان ويأخذ فى شرحه .

ويواصل مورتيمر الصمت ، ويرفع يده اليمنى ويحركها مرات هنا وهناك فى احتفال ، ويسأل البائع : ماذا يختار السيد ؟ ، ويشير مورتيمر صامتا الى القطعة القريبة منه ، ويعده البائع فيما يبدو له شخصا غريب الأطوار ، لكن هذا لا يدعو الى أن يحبط صفقة ولو متواضعة بهذا القدر .

ويلف الشريط الحريرى فى ورقة ويناوله إياها من فوق الخوان ويقول : « خمسة وثمانون كوبيكا » .

وينظر مورتيمر اليه صامتا ولكن مستكنا وتطلب نظرتة الراجية الفهم ، ويأخذ اللفة وينفض رأسه ويريد الانصراف .

ويقول البائع متضايقا جدا : « من فضلك .. خمسة وثمانون كوبيكا » ، ولا يدري مورتيمر بعد ذلك ماذا يفعل ، قد يلقي اللفة فوق خوان الحانوت ، ويهرع الى الباب لا يريد غير الانطلاق ، وليظنه الرجل معتوها أو نصابا . ويصبح البائع خلفه ويشهر به ، لكن لما كان الرجل فى حانوته بمفرده فقد بقى مورتيمر آمنا من المطاردة .

وتمتعت الملقنة بسماع هذا المشهد .

وقالت : « عظيم ، عظيم • لكن هذا كله متحيل • لا بد أنك وقعت فى حانوت غير الحانوت » •

فلم يصغ مورتيمر الى هذه الكلمات المعقولة ، بل طفق يلعن نفسه ويشكو ويتهم ، وثار ولم يمكن تهدئته ، ولم يهمله كيف لازمه النحس • وسيان عندنا أيضا هل لم تتوخ الملقنة بطبيعتها الودودة الدقة الكافية من قبل حين وصفت له المكان أو أن مورتيمر لم يصغ بانتباه كاف ، ففى حالة كحالته ينجذب الناس بما هو عاطفى غير محدد مما يجذبهم الشئ الدقيق •

وكانت الملقنة على استعداد لأن تنهض من كل قلبها بكل التبعة ، لكنه صرخ ، فهو الآن يزود بعلامة على أن شوكة النحس تأبى أن تكسر وأنه يعز عليه أن يهتدى الى الطريق السوى ولن يكون من ثم أبدا صائح حظه • وارتمى بهذا على الأريكة ودس رأسه فى تيه الوسائد الزهيدة ولفات النوم الاسطوانية •

لكن الملقنة عقدت العزم كما يتطلب دورها فى هذا المشهد ، وهكذا ثبتت يديها فوق ردفها ، وقد ربي الجمهور على تأويل هذه الحركة بأنها عرض من أعراض التصميم ، وثم قانون كما هو معروف للتفاهم بين المسرح والنظارة ، ونحن جميعا نحفظه من الصغر ، وقد بدا هذا بالفعل فى أقصوصة عيد الميلاد •

وصاحت : « ألا تخجل ؟ » ثم وضعت يدها اليمنى فى أهمية على كتفه بينما بقيت يسراها على ردفها دلالة على أنها ما تزال مصممة •

وأعلنت اليه : « سأكون صائغتك • وسأصوغ حديدك وهو ساخن » •

فقال واهنا : « حديد رقبتي » •

« حسنا • حديد رقبتك • ابق هنا مستلقيا فوق الأريكة
وسأعطيك ، وأعد لك بسرعة شايًا ثم أنطلق وأعود بالشريط
أدراجي » •

لكن مورتيمر هب بسرعة لأنه لم يرد السماح بذلك ، فلعل
الذنب ذنبه في الحقيقة وعندئذ يريد حقا أن يرى كيف وقع في
الحانوت ما وقع ، كذلك داخله شيء طفيف من الريبة ، أليس مما
يمكن أن تشتري من مكان ما على مقربة أية قطعة من الشريط
الحريري حتى لا تتعرض لكسوف ؟ •

فصاح : « انى آت معك » •

لكنها عز عليها أن تسمح له مع ذلك بأن يقطع الطريق كرة
أخرى على قدميه في المطر والثلج ، وهكذا أخذوا كازيلينا وهو الاسم
الذى كانوا يطلقونه في ريجا في احتقار على المركبات ذات الحصان
الواحد وعادا بها ثانية مقابل عشرة كوبيكات ، وكان باعثا على رضى
السائق أنه تلقى خمسة كوبيكات أخرى بقشيشا • وأرادت الملقنة
أن تدفع ، لكن مورتيمر لم يقبل ، وآلمته ريبته الطفيفة في الذهاب ،
اذ جرى كل شيء بطبيعة الحال كما وصفت له الملقنة ، وقامت
بدورها في الحانوت بالاجادة نفسها التى أدت بها دورها في رواق
المسرح بل أبرع ، ذلك أن جمهورها كان قد تضاعف ، وكان مؤلفا
عدا مورتيمر والبائعة العجوز من طفلين أيضا كانا هناك لابتياح
أزرار للملابس الداخلية ببضعة كوبيكات •

وشكر لها مورتيمر فى الاياب صنيعها وضغط كلتا يديها
وأراد أن يقتادها حتما الى حلوانى كافيتزل لكنها لم تشأ أن تسمع
من هذا شيئا بل كان الأولى فى نظرها أن يؤوب الى البيت بأسرع
ما يمكن ويأوى الى فراشه ، فأطاعها وأرضاه أن يطيع ، لكنه قبل
أن يطيع صرح لها بقوله وهو يشعر بالانقباض مرة أخرى : « ان

هذه آخر محاولة أو كما يقال آخر أحكام الله ، فإذا لم تنفع الوصفة
كرة أخرى فلن أحرك ساكنا بعد الآن وليكن بعد ذلك ما يكون » .

وقالت الملقنة : « سترى » .

وبلح موريتمر الدواء ولف الشريط على عنقه واضطجع
وتناول نبيذا ساخنا وشعر بأنه قد شملته عناية دافئة ، وحين
غلبه النعاس كان قد انتوى أن يتدارك الزيارة لكافيتسل وأن
يجزى العجوز على احسانها بسخاء .

وفى صباح اليوم التالى استيقظ خاملا ، فهل تحسن عن ذى
قبل ؟ لكن كيف يقطع بهذا فى اللحظات الاولى والمرء لا يكون عند
النهوض من النوم رائق الذهن بعد ؟

وتناول قبل حلاقة ذقنه بضع جرعات من الكونياك ، وقرر
أنه يشعر بأنه أحسن حالا . . وتوجه الى المسرح .

« هل عرفت أيها الصديق العزيز ؟ نعم ؟ حسن . فصدوتك
أجلى ، فصن نفسك فقط الى مساء اليوم وعندئذ استجمع قواك ،
فانى لا أود أن أعرض نفسى للسخرية أمام هذا المدير الغراندوقى ،

وأجاب موريتمر :

« حسنا جدا يا سيادة المدير . »

ووقف مورتيمر فوق المسرح مساء والشريط الحريرى فى
جيبه ، وكان نجمه طالعا ونحسه غاربا ، ومؤكدا أن موريتمر كان
يمثل وهو محموم لكنها كانت حمى من ذلك النوع الذى يشبه
النشوة ، فكل القوى تبدو متزايدة ولا يعود للعوائق الارضية على
المرء سلطان .

وكان المسرح غاصا وكذلك الكونت شوفالوف الحاكم العام لأقاليم البلطيق الثلاثة كان حاضرا تحيط به كالهالة كافة أنواع البزات فى مقصورة هى واسطة عقد الدرجة الاولى تواجه المسرح رأسا ، لكن هذه المقصورة وتسمى مقصورة القيصر - ذلك أن الحاكم العام كان يجلس فيها كممثل له - لم يكن لها شأن فى نظر موريتيمر فنجمة اللامع مقدر له ألا يصعد هنا بل فى مقصورة مقدمة المسرح .
وحقا أن المدير الغراندوقى كان جالسا بجانب مدير المسرح وكان سيدا عظيما متقدما فى السن ، وإلى هذه المقصورة سيتجه بتمثيله فيما بعد ويكون عليه أن يسلط كافة قوى ارادته عليها ، ولا شك أنه لم يكن يسعه ككومبارس عسكرى أن يأمل بعد فى أن يلقى أى التفات فى مقصورة مقدمة المسرح .

وأخيرا رنت أغنية الفارس ، ومع أن مورتييمر كان يعتقد أن صوته عاد اليه وبات فى حوزته فانه لم يغن مع المغنيين على سبيل الاحتياط بل اقتصر على أن يؤدى مهمته فى مجموعة المغنيين بحركات من فمه لعلها مبالغ فيها ، وبغثة تذكر أنه كان انتوى أن يعطى حليفته الأمانة الجاثمة فى صندوق التلقين علامة التفاهم ، وحقا لقد نسى ذلك تماما وبحث عنها بعينه على عجل ، ولما لم يكن عليها ما تلقنه أثناء الاغنية الختامية فقد دست « بونبونة » فى فمها وجعلت ترفع جوربها المحيك .

وعندما لقيتها نظرتة رفعت بصرها ، فابتسم لكنها أشارت بآبرة الحياكة اليمنى وانتهت الأغنية عقيب ذلك وكان التصفيق باعثا على الرضى وارتفعت الستارة بضع مرات ، وكان لكافة أنواع السلاح أن تنحنى وفهم الفرنسييسكانى أن يزاحم الى المقدمة بصورة تنافى الزمالة لكنها كيسة ، وذلك أنه أخذ بيد جوستل فون بلازيفتش ورقص معها بضع خطوات متوثبة ، فراق هذا

الجمهور لكن المدير قطب جبينه لأنه لم يكن من محبى الارتجالات
إذا لم يحفز هو نفسه إليها ويدرب عليها .

ومرت فترة الاستراحة وتبدل المنظر وهو الآن قاعة غوطية
قديمة فى بلدية بلسن مزدانة بالاعلام وغيرها من أدوات الحرب .
وفى هذه القاعة زاول أوكتافيو وكفستبرج المنظر الثالث ، وكان
مورتيمر واقفا فى الكواليس ينتظر اشارة وكان على أوكتافيو أن
يعطيها وكان نصها : « هددوا ! ها هو ذات آت . » وليس أوفى
بالغرض من هذه الاشارة . ودنت لحظة مورتيمر فوقف مستعدا للقفز
ككلب الصيد . وقف أمام التحول ، أما الحكم والفصل ، أمام
نعم ولا ، وأحس من القوى ما لم يحس به من قبل ، فخطرت له
العبارة التى يعرف بها الروس الشعور العظيم بسلطان السكر :
والمدير والمدير الغراندوقى والأسرة الغراندوقية وحاشية البلاط
« ان البحر يبلغ ركبتى » سيقهر الجميع : الجمهور والصحافة
ومقر الحاكم العام والقدر وكان كفستبرج قد قال من هنيهة :

« انه انصياح السماء المبين . »

فهوى النجم ، هوى النحس - كلا فما نزيده من الآن فصاعدا
التخلى عن هذه الصورة الفلكية . هذا الى أنه ينبغى أن نقيم حكاية
الشريط الحريرى الدليل على أن الامر يتعلق باليمن والنحس كما
يتعلق بنجمة الصباح ونجمة المساء ، بالجرم امسماوى نفسه فضلا
عن أنه سيتضح أن حكمة القدر تفوق حكمة البشر .

وبغته سمع مورتيمر من خلفه خطوات مقعقة عالية بصورة
غير مناسبة ، فالتفت مذعورا فوجد قبالة ضابطا ، ليس من جنود
فالنشتاين بل ضابطا روسيا من ضباط القيصر عرفه من وجهه
فقد كان الياور الثانى للحاكم العام . وكان الانفعال قد قلب
سجنته ، أجل لو لم يكن مورتيمر قد تملكته الدهشة لتبين فى

عينى الضابط تعبيرا عن الرعب • وكان يمسك فى يده بورقة
ويتبعه المشرف على المسرح بحركات فى غير وعى •

وسأله الياور : « أتتكلم الروسية ؟ »

فهز مورتيمر رأسه بالايجاب •

وأمسك له الياور بالورقة وقال شيئا عجز مورتيمر عن فهمه
لأنه كان ما يزال مترقبا الإشارة المنتظرة • فأعاد اليور قوله •
وكان يتكلم بصوت خافت لكنه لم يفعل هذا كى لا يشوش على
التمثيل ، اذ قال : « تقدم واتل هذه البرقية • أبلغ الجمهور أن
التمثيل سيتوقف • ؟ »

فى هذه اللحظة قال أوكتافيو : « هدوءا ها هو ذا قادم » •

وبادر الى الابن الذى طال افتقاده فى عطف الأب فتبعه
كفيستنبرج على مبعدة متأملا •

لكن مكس على النقيض من ذلك لم يبد لا مسلك الابن ولا
مسلك كولونيل يرتدى الدرع حسن التريية ، بل تقدم الى الامام
تصطك ركبتاه ، دون أن يأبه بكلا الرجلين صاحبي المنصبين
العسكريين الجنرال والمستشار الحربى ، وكل ما رآه فى هذه اللحظة
هو عينا الملقنة المحملقتان من الرعب ثم غام كل شئ لناظره •

ووقف فى مقدمة المسرح وتلا البرقية :

وكانت تتضمن أن عيسارا ناريا أطلق فى حديقة بطرسبورج
الصيفية على صاحب الجلالة السيد والقيصر اسكندر الثانى •

وأدرك مورتيمر أن آماله جميعا قد انهارت فسيغلق المسرح
لفترة طويلة حدادا ، ويكون المدير الغراندوقى قد رحل فى تلك

الاثناء من أمد والسيد تويمات قد تماثل للشفاء والسيد مونتي بالمثل . ألا ان القدر ليعاكسه ، وأجهش بالبكاء وجعل ينتخب نحيبا بادی التشنج واليأس ، أدى اليه كل ما شيد من اعصابه وارادته فى هذه الأيام الأخيرة وكل ما أنهكه وما أصابه من حمى وأحس وجهه تبلله الدموع فمد يده فى جيبه يبحث عن منديل السعوط فأخرج بدلا منه شريط الحداد الأسود ، وأمسك به فى يده وصدق فيه لحظة وأتى بحركة تدل على استسلام عديم الامل كل العدم وعلى قنوط هو أفدح ما يكون . ثم انحنى انحناءة مقتضبة وخرج .

وطالما كان مورتيمر على المسرح كان ما يزال محافظا على شىء من الاتزان أما الآن فقد زایلته قوته فانهار وهو ينسحب ، انهار فى وقت لم يفت الجمهور أن يراه فيه لكنه كان متأخرا عن أن يشعر الجمهور به .

ولم يكن فى نيته أن يطلع الجمهور على انهياره . وكان يمكن أن يغمى عليه ويقع على الارض لكنه تداعى وهو يسير وارتمى رأسه على صدره وتخاذلت خطاه ، وأصبح واضحا أن رجلا كسيرا يترنح مشهد مؤثر نزلت عليه الستارة ، وقد استمع اليه الجمهور فى حالة من الجمود ، فما بلغ هنا كان تام الهول بل تام الاستحالة ومضى بعض الوقت قبل أن يعيه الجمهور .

وقارىء اليوم الذى سمع الكثير من الاعتداءات الروسية على الحياة يمكن أن يدهشة هذا ، فلعله يفكر أنه بالعيار النارى الذى أطلقه الطالب كاراكوسون فى الرابع من أبريل ١٨٦٦ دخل الاعتداء على الحياة فى التاريخ الروسى كشىء جديد كل الجدة ، فقد حدثت مؤامرات فى القصر ووقعت حوادث قتل للقياصرة ، لكن مثل هذا كان ينفذ خلف جدران القصور ويقع خفية ، وكان الناس

يشعرون به كما لو كان بلا ريب تطهيرا ذاتيا للقيصرية يثير
الرعب ، كذلك وقع آخر هذه الحوادث وهو قتل القيصر بول قبل
سته عقود ونصف عقد من السنين ، وكان الناس يعرفون أن فى
فرنسا آلات جهنمية أرعدت أمام مركبة القيصر فى طريقها الى
المسرح ، أما أن يرفع أحد فى بطرسبورج وعلى رؤوس الاشهاد
السلاح فى وجه القيصر وبالذات الاسكندر مريد الخير ، القيصر
المحرر ، فما بدا نذيرا بانهيأ كل الامانى وقيام مخاوف لا يمكن
تصورها . كذلك يجب أن يدخل فى الاعتبار أن تلك الطبقة من
المجتمع التى كانت تزور مسرح مدينة ريجا كانت تقابل كل مسعى
يرمى الى احداث انقلاب باستنكار ونفور دينى تقريبا - اننا
لنعرف حقا أجدادنا .

وأخيرا ارتفعت صيحات وأصوات نساء تصرخ وأنات
وانخراط فى البكاء ووقع مقاعد منهدة وحركات مختلطة . وسقطت
من مقصورة مروحة ومن أخرى منظار أوبرا . وأمسك أناس غرباء
بعضهم بعضا من الاذرع . وكان كثيرون ما يزالون يحملقون فى
الستارة المسدلة كأنما ينتظر من هناك شيئا مسليا . كلا لا شئ -
ولا من أحد يريد أن يتسلى ، بل كل يريد أن يعلم بالصاعقة علم
اليقين .

وهكذا كانت وحدة المشاعر من القوة بحيث انه لم يشرع
فى مبارحة المسرح الا قليل أرادوا الخروج بهذا من دائرة المشاطرة
الأليمة .

ولم يكن مورتيمر قد قدر بعد على التفكير فى ازالة أصباغه
وتغيير ملابسه فبقى جالسا فى غرفته معتمدا مرفقه على المنضدة
محملقا فى المرأة زائغ البصر .

وانفتح الباب وانطلق الياور الى الداخل وكانت فى يده ورقة مرة أخرى ، وكان وجهه متهللا •

وصاح الياور : « أخيرا لقد فتشت عنك فيجب أن تتوجه الى الستارة • فقد وردت برقية أخرى • ان القيصر يعيش • »

وصيح في الجمهور : « هدوء ، هدوء » وعندما وقف مورتيمر أمام الستارة يلوح بالبرقية • ارتبك الناس الذين كانوا بسبيل الانصراف • ورجع الكثيرون أدراجهم متدققين •

وتلا مورتيمر : « لقد ثبت طبقا لأنبياء مختلفة النص أملاها انزعاج واضطراب مفهوم أن جلالة القيصر على قيد الحياة لم يصب بسوء • وقد رعته العناية الالهية واستخدمت قرويا ممن حررهم جلالته وهو الشاب لوسيب كوميساروف فدفع ذراع المعتدى فى لحظة الطلق الى أعلى • »

فدوى تصفيق يعم الآذان تصحبه صيحات الهتاف وصرخات المرح ، وكان الاستحسان ينصب فى المحل الأول على العناية الالهية والقروى كوميساروف ، لكن بعضا منه كان من حق مورتيمر أن يتلقاه فأنحنى من ثم ثلاث مرات ، مرة نحو مقصورة الحاكم العام ، بوصفه والى القيصر ، ومرة نحو مقصورة المدير التى يجلس فيها المدير الغراندوقى وثالثة للجمهور عامة •

ومفهوم أن مورتيمر كان يشعر أن أسطح النجوم نورا كان يسلط أشعته عليه ، كذلك هو تملكته قوة اللحظة التاريخية ، واستؤنف التمثيل ، وكان عليه أن يمثل مكس فيالها من خلفية خلقها لدوره ، فلم يطاء المسرح قط ممثل فى مثل هذه الظروف •

فى مثل هذه الغبطة التى فاض بها قلبه شعر مع ذلك بالرغبة

فى ألا ینهى أبدا دوره الذى هو محط الأنظار قبل الاوان فيجب
أن يتذوقه حتى النهاية •

وأشار مورتيمر بيده التى تمسك بالبرقية ، ولاحظ الجمهور
أنه يريد أن ینهى شيئاً آخر وانتظر أن يسود الهدوء • فقرت
الضجة ، وأعلن مورتيمر كرة أخرى رسالته لكن باللغات الالمانية
والفرنسية والانجليزية واللاتفية •

وكون مورتيمر قد استخدم أيضا اللغة الانجليزية ، قد
حسب له حسابا عاليا وبمعنى من معانى الظرف الخاص وحضور
الذهن ، ذلك أنه كانت ترسو فى الميناء سفينة مدرسية انجليزية ،
وكان ضباطها مع القنصل وأسر التجار الانجليز المقيمين فى ريجا
موجودين بين النظارة •• على أن مورتيمر لم يكن يعلم من هذا
شيئا ولو اتفق أن كان يتكلم الباسكية قليلا لأذاع بهذه اللغة النائية
أن القيصر فى الحفظ والصون •

لقد جلب له هذا الملحق ، هذه « المرة » ، نجاحا كبيرا
واستحسانا عظيما فوضح هذه المرة أن العناية الربانية أو القروى
كوميساروف لم يكن المعنى •

وأراد مورتيمر الانسحاب الى ماوراء الستارة اذ كان لابد أن
يعود التمثيل بأسرع ما يستطيع • فالمدير الذى كان مقعده خاليا
كان يقف حقا خلف المنظر ويصدر أوامره ، ولنا أن نفترض أنه
كان يقصد أن يختصر عددا من المناظر ، وأن يدخل بدلا منها « باليه »
ليس ما يبعث عليه لكنه يريد به التنشيط ، وكان فى نيته على كل
حال أن يظهر فى مأدبة الجنرال الكبرى فى الفصل الرابع سربا من
الراقصات ، ولم يكن من الهنات الهيئات بالنسبة للدرامى أن
يقتنع بهذا • فقد كان آئذ متضايقا ، لأنه كان الأليق فى رأيه

لو أن الحاكم العام كان قد رجاء أن يتلو البرقية بوصفه رب البيت، لكن الكياسة قد جوفيت بلا ريب في مثل هذا الذعر والانفعال ، فضلا أن مثل هذه التبليغات إلى الجمهور لم تكن تقررت لها تقاليد ، وفي تلك الأثناء أحس أيضا أنه ساخط على مورتيمر ، فكان يفكر : ان هذا الشاب ليصبحن في نظري أصعب مراسا مما ينبغي ، وقد كنت مرة أخرى أطيب معه مما ينبغي ، وسأحرص في المستقبل على أن أكون معه أشد إيجازا .

واذ يوشك مورتيمر أن يتعد رأي كيف أن الحاكم العام نهض وانحنى فوق حاجز المقصورة وأشار بيده . وكان واضحا أنه يريد الكلام فارتفعت صيحات تحت على الهدوء ، وقرت ضجة الاستحسان وبقي مورتيمر .

فقال سوفالوف بصوته الواضح الرضى باللغة الألمانية وتوكيد من ولد روسيا وهو توكيد يتطلب الشدة : « سيداتي وسادتي ، بعد هذا الذي هز وجداننا وكان في هذا المساء من نصيبنا تكاد لا تكون في الحق قادرين على أن نغير مثل هذا الأداء الرافع للمسرحية ما هو خليق به من الالتفات ، واذن فلنعد إلى بيوتنا ونضيء منازلنا ونحمد الله أن دفع عنا السوء بمنه وفضله » .

وهتف على الأثر بحياة القيصر ، فهب واقفا من لم يكن وقف بعد ، واقترن بذلك النشيد القومي : حفظ الله القيصر ، وأمر سوفالوف ياوره بتنغيمه وغنت الدار كلها معه .

ولم يكن مما كره الجمهور أن قطع التمثيل ، فقد كان كل هؤلاء الذين هزهم ما وقع جد متلهفين إلى الحديث والحكاية في البيوت أو تبادل الآراء والافتراضات والتأثرات في فندق روما وفي مدينة فرانكفورت وفي المنتديات حتى لكأنهم كانوا في الراجح خلقاء أن ينفضوا دون أن يطالبهم الحاكم العام بالانفضاض ، وغنوا

النشيد مرة أخرى • وكان المدير أيضا مرتاحا بل لقد اعتدل مزاجه فجأة ، وأوى الى فراشه مبكرا ولم يحتج الأمر الى استرداد أثمان التذاكر •

كان مورتيمر مايزال واقفا فى مقدمة المسرح ، وكان يغنى بصوت جاوز ارتفاعه الحد ، فلم يعد ثمة داع الآن لأن يغنى بصوته فقد هزم نهائيا ، لقد زاول معه شيطان عدو له ، ذو قوة قاهرة ، زاول معه من قديم لعبته الغائظة الشريرة ، بيد أنه استسلم اليه كل الاستسلام لما أطلق آماله العنان وترك الملقنة توسوس له فى أذنه بأسرار الشريط الحريرى الأسود •

لقد كان عاجزا عن أن يتعزى بفكرة أنه بعد غد بالفعل – لأن غدا يوم أبرأ – سيقف على المسرح بوصفه مكس ، وسيلقى التفاتا واستعدادا لم يلقيهما بيكولوجيين من قبل • كان عاجزا عن أن يتذكر أنه قبل أسبوع واحد لم يكن يعلم بوجود المدير الغراندوقى وأنه استخفه الطرب لما قيل له أن له أن يمثل مكس أمام جمهور المسرح المؤلف الذى درج على الحضور ، والآن لم يكن تملكه سوى فكرة واحدة هى أن المدير الغراندوقى سيرحل غدا وأنه سيحمل آماله جميعا معه عبر الحدود •

ونشيد القيصر الروسى الذى ألفه شاعر حميم حقا هو بين أناشيد العالم القومية أوجزها وأعظمها شأنًا والآن قد انتهى من غنائه •

لقد بلغ حنق مورتيمر منتهاه على مسلك بين ذروته بالايقاعات الأخيرة ، أفلا يزال هذا الشيء اللعين فى جيبه ، هذه الخرقة السوداء التى بدا له كل مافى قوة التحس من شر مجسما فيها •

وأخرج الشريط الحريرى وأمسك به وجعل يتأمله بضغ
ثوان ، تحت نظر الجمهور ثم مزقه شذر مذر ونثره على الأرض .
انه ماكان ليكون حتما ممثلا لو لم تستهوه الستارة لكن خيل اليه
فى الوقت نفسه أنه يمزق بشريط الحداد هذا ماضيه الخاص
ومستقبله الذى حلم به وآماله وأوهامه ، وانه يتصل من كل
ما ضلله وأربكه وأمضه وأنه يفوز بحرية لا حدود لها بهذا التمزيق
وهذا النثر لما مزقه .

ورأى الجمهور فى هذا التمزيق لشريط حريرى لم يعد له
نفع ، خاطرا أنيقا هو أحب ما يكون الى النفس ، وبينما بعض
التفكيرات على افرادها تتناول فى سكون مايصاحبها فى هذا الصدد
وتتساءل من أين أمكن أن يكون لمكس بيكولومينى فى اللحظة
المناسبة بالضبط شريط حداد تحت يده - وقد ذكرت سيدة مثقفة
بجيوب بيتر شليميل قالت - : قوبل بعاصفة من الهتاف
منظر الختام الجميل الذى ختم به مساء عدا جدر ما يكون بالتفكير
بين كل أمسيات مسرح المدينة .

لكن مورتيمر لم يعترف بالاستحسان ولم ينحن بل خرج
منه بشكل درامى كمكس أصيل مصمما على أن يلقي بكل شيء .

واذ يصل الى حجرته يشعل سيجارة أول ما يفعل اذ ماذا
يمكن أن يضره خطر التدخين يصدر عن الطبيب أو عن ادارة المسرح
وفك أضرار السترة العسكرية وكان يريد خلعا لكن خطر بباله
أنه اذا كان الحديث عن خلع سترة عسكرية فالقصد فى الأغلب
هو أن المرء يستعفى ويدفن كل آمال حياته ، لكن هنا فتح الباب
وظهر الياور للمرة الثالثة .

قال له الياور وهو يبتسم : « زر سترتك العسكرية ثانية
ياحضرة الكولونيل فانى مكلف برجائك أن تصحبنى الى المقصورة » .

فهب مورتيمر واقفا يكاد يصرخ • كلا فانه لم ينس • فالمدير
الغراندوقى يريد أن يتحدث اليه ويجب أن تتحقق كل الأحلام •

وألقى بلفافة التبغ فى قدر للأصباغ أكل عليه الدهر ، وأخذت
تتصاعد منه فى الحال روائح كريهة كأنما يريد أن يعاقب على
مخالفة أوامر الدار ونظام المرضى ، واقفل مورتيمر سترته ومضيا
وخطر له أن يظهر أهميته بجانب الياور فكان يتحرك فى انتصاية
عسكرية

فلما اقتربا من مقدمة المسرح أراد مورتيمر الوقوف وأن يدع
مرافقه يتقدمه فى الدخول فقال الياور متعجبا : « هنا ؟ يظهر أنى
أعرف منك بهذه الدار » •

فتمتم مورتيمر دهشا : « لكن هذه هى مقصورة المدير » •
« المدير ، انى أمرت بأن أقتادك الى مقصورة القيصر » •
فارتد مورتيمر الى الشقاء ثانية • اذن الى الحاكم العام •
فماذا يمكن أن يبغيه منه الحاكم العام ؟ سيقول له بضع كلمات
ودية ثم ينصرف ثم يظل هو الى الأبد يمثل فى ريجا أدوار الخلان
الزائفين •

ودخلا المقصورة • وكان يجلس فيها سيدان الحاكم العام
فى بزته البراقة ، وسيد بجانبه بدين أشيب الشعر يرتدى
« الفراك » - وتزين الأوسمة صدره وعنقه •

فانحنى مورتيمر للحاكم العام فحنى له رأسه وهو مشئت
الفكر ، وانحنى مورتيمر للسيد لابس « الفراك » ورأى أمامه رجلا
ذا غضون كثيرة فى العنق وله وجه ذو عينين ذكيتين حادتي البصر •

وقال هذا الرجل : « لقد طلبت استدعاءكم ، فانا الأمير
جاستوبلسكى ، لكن هذا هو أقل ما هنالك • ذلك أننى قبل كل

شيء رجل مسن غريب الأطوار واذا شئت ، مجنون ، لكنى حاذق بلا ريب ، هذا الى أنه مسموح بكل ضرب من ضروب الفنون لانسان على درجة بعينها من النفوذ والشراء ، وهذه الدرجة متوفرة لى ، وكثير من النوادر تروج عنى ، وانى لأخاطبكم مع الكلفة ، وهذا امتياز كبير والا فانى أرفع الكلفة فى خطابى لكل الناس فيما خلا القيصر ، هذه عادتى وستعرفون عاداتى الأخرى ، وليس بينها وأقسم بشرفى ، ما يمكن أن يسبب لكم المتاعب .

وكان الأمير يتحدث بالروسية والفرنسية مبادلا بينهما وأخرج علبة « سجائر » ذهبية وقال : « تكرم أيها الحاكم العام » . فتناول شوفالوف ثم قدم الأمير الى مورتيمر ثم تناول هو وكانت السجائر مما شهره القيصر ، ولم يدخن معه السجائر الا دائرة ضيقة لما كان ما يزال وليا للعهد لا يرضى عنه أب صارم يدخن الغليون وارتقى اسكندر العرش وغزت السيجارة العالم صادرة عن بطرسبورج .

واستطرد جاسنوبلسكى يقول : « ان لك لالاما باللغات وانك لسريع الخاطر حاضر البديهة وأنت رجل وطنى تدرك المواقف وتفهم كيف تعامل الناس . وقد بعث بى القيصر الى هنا لأفتش على بضع سلطات مضجرة وغدا أسافر مبكرا عائدا الى بطرسبورج فهل تريد مرافقتى سكرتيرا خاصا ؟ وسأؤدى عنكم الغرامة العرفية » .

ولما كان مورتيمر لا يزال ملازما الصمت فقد أضاف الأمير الى ذلك قوله : « ويمكن أن تكون سعيدا » .

وقد أعجب مورتيمر بالصورة الرائعة التى مثل بها الأمير دوره الذى اختص به الأمير نفسه على كل حال ، ومع ذلك فلم يكن لدى مورتيمر وقت لأن يتدبر هذه الفكرة ، فقد جرى كل شيء سريعا ، كذلك لم يعد يسعه الاهتمام بحالته الصحية ، فليس

يتوقف عليها شيء كثير . وحقا لقد كان بصوته بحة قليلة ماتزال ، ولكن ماذا يضير هذا فنحن جميعا مبحوحو الصوت أحيانا .

ومثل مورتيمر على مسرح العالم دوره الذى خصص له وعظم الدور تحت يديه ، وكان عنده ما يدعو الى أن يكون فى ادارة جاسنوبلسكى عاليا ، وقد لاءم مورتيمر بين نفسه وبين العالم على أسلوبه وازدادت ملاءمته على مر السنين . . ذلك أنه لم يكن يوما من تلك الطبائع الطموحة التى تستطيع أن تلائم العالم . وقد توفى فى ليلة الحرب العالمية الأولى حائزا لعدة أوسمة ومالكا لعدة ضياع فى محافظتى جاروسلاف وبنسا . وفى سنواته الأخيرة عاد الى العيش فى بطرسبوج مؤثرا العيش فيها بعد أن جال فى روسيا كثيرا ، وقد احتفظ للمسرح بالموودة ، ولما كان يعد من الخبراء فقد ظل طويلا رئيسا لجمعية المسرح الألمانى يمدّها بالنصائح ، وكان له فيها نفوذ ولها منه الحماية ، وبالجملة كان له كما يقال دور . وقد جاء الى ريجا مرة أخرى لبضعة أيام ، ولعل ذلك كان بعد مبارحته لها باثني عشر عاما فحيا رفاقه فى ذلك العهد ، بعضهم بحرارة وغيرهم بتحفظ . ووجد المدير قد طعن فى السن وحنثه الآلام وحناء الخضوع . وقدم اليه علبة سبائره الذهبية فى قلة مبالة وقال له : « تكرموا يا حضرة المدير » . فانحنى له المدير اجلالا قبل أن يمد الى العلبة يده ، ومفهوم أنه لم يعد يخاطب مورتيمر بياصديقى العزيز بل بياحضرة مستشار البلاط ، على أنه قال له مرة : حسنا جدا يا حضرة مستشار البلاط . وتحادثا برهة عن الأيام الخوالى فسأل مورتيمر عن هذا وذاك ، وأيضا عن الملقنة التى عادت تخطر بباله ثانية .

فقال المدير : « نفس طيبة يا حضرة مستشار البلاط متواضعة . ان موتها كان الشيء الوحيد الذى ساءنى منها ، كنا بالذات نؤدى قطعة كلاسيكية وكل شيء فيه شعر واستشهاد يعرفه الجمهور

ويعرفه رجال الصحف .. أجل صحيح كانت تمثيلية باتان ، يقوم السيد مونتي بدور الفارس الدينى فيها والسيد مونتي - دعنا نقل - لم يكن قوى الذاكرة يوما ما لكنه كان فى مقابل ذلك ذا فهم كبير . والفهم أيضا أهم شأننا على شريطة أن يلحق الممثل تلقينا صحيحا ، وارتج على السيد مونتي وبدأ يعتمد على التلقين ، فكان يقترب على الدوام من صندوق الملقنة ، لكلمة افلست أعلم حتى اليوم كيف نجونا من الفصل . فما كادت الستارة تنزل حتى هرع السيد مونتي الى الملقنة ليوجه اليها اللوم . وناهيكم كيف كانت الحال ؟ كانت الملقنة ميتة بالسكتة القلبية ، وكان السيد مونتي ساخطا . قال : « أوجب أن تختار هذه اللحظة بالذات ؟ » فأجبتة : « يا صدقى العزيز ، يجب أن تخشع أمام الموت وأمام هذه الميتة بالذات انها لميتة جندى فى ساحة القتال . لكن الخشوع لم يكن فى الحقيقة شيئا عند السيد مونتي » .

« وعلى كل فقد كان ذا فهم . والفهم أيضا أهم .. وعندنا مساء اليوم ممثل جديد : أدولف فيلبرانت .. فاذا راقكم الحضور الى مقصورتى أكون سعيدا يا حضرة مستشار البلاط » .

وركب مورتيمر الغم أنبقى هذه المدة الطويلة لا يفكر فى العجوز الطيبة . لقد كان فى نيته أن يأخذها الى كافيتزل وكان خليقا أن يكتب اليها على الأقل ، وهو لم يودعها مرة ، فقد تم كل شيء على عجل ، وهو الآن يفكر فى تأثير بالغ : الملقنة .. الموحية .. المهمة التى كانت تلهمنى الصواب ..

ولم يفض مجرى أفكاره الى أبعد من ذلك ، لكننا نحن كنا نحب أن يضيف اليه أن الأمر اذ ذاك لم يكن يتعلق بالشريط الحريرى الأسود بل بقوة الشفاء الخفية الكامنة فى كل انسان والتى تحتاج لتكون فعالة الى نداء تحدوه الثقة ، وإلى تلك المناسبة المنظمة التى

لا تذلل عوائق الصلحة فحسب بل تتولى أيضا ما لحقه الفشل
والمسوخ فى مصير الانسان .

واننا لنحب أن نتذكر أن كلمة الهام لا تعنى غير النفط والنفخ
والايحاء وان كل مثال منظم يحب أحيانا أن ينقل وظيفته النافثة
الى انسانية مثل عجوزنا الطيبة .

وقرر مورتيمر أن يزور قبرها على الأقل وأن يضع عليه
اكليلا جميلا . بل انه فكر فى أن يثبت على ذراعه اليسرى طيلة
هذه الزيارة للمقبرة شريط حداد ، لكن المقابر كانت حقا نائية فى
الخارج وكان الألوان شتاء والصقيع قاسيا والثلج عاليا ، وكان
لابد له أيضا من أن يستعلم أولا وفى شىء من الكلفة عن المقبرة التى
دفنت فيها ، هذا الى أنه كان يعرف أية مصاعب تعترض الاهتداء
الى قبر ليس من بين القبور المحترمة بالذات ، وهكذا اقنع نفسه
من دون كبير عناء فى أول الأمر بأن الملقنة لم يعد ينفعها اكليل ،
وان العجوز وشريطها الحريرى ما كان يمكن أيضا أن يكون لهما فى
الحقيقة دخل كبير بأحداث حياته .

بوبيسك

« Pupsik »

اسماء الشخصيات :

Dunja

دنيا

Pupsik

بوبيسك

أقمت في باريس فترة من الزمن مع مهاجر روسي أصغر مني
سنا جنبا الى جنب ، وكان قد وجد وظيفة في بنك .

و كنت أحب أن أصغى اليه فروى لي ذات مرة حادثا عاشه ،
شديد الغرابة واني لأقص عليكم حكايته كما حكاه لي :

كان أبى موظفا في السكك الحديدية فنقل في سنة ١٩١٠
من كريمنتشوج الى ميتاو فالتحقت هناك بفصل من فصول التعليم
الثانوى الأدنى ، وكان لنا مسكن تابع للمصلحة أقرب ما يكون الى
المحطة . وكانت له حديقة واسعة نوعا ما ، كان يحلو لأمى الاشتغال
بها ، وقد زرعت فيها حوضا مستديرا للورد كان في وسطه على
قائمة خشبية مدهونة باللون الأخضر كرة زجاجية لامعة بلون الفضة
شد ما كانت تعجبني .

وكانت أختى « دنيا » ما تزال تعيشنا في ذلك الوقت وكانت
تكبرنى بخمس سنوات ، فلما كانت الحرب الأهلية بعد ذلك
فقدت أثرها ، ولا أعرف هل ماتت أم ما تزال الى اليوم على قيد
الحياة ؟

كانت دنيا وسيمة بألوانها النضرة الجميلة وعينيها اليقظتين
القلقتين بعض الشيء . وكان لها معجبون كثيرون فكنت أغيظها
أحيانا بذلك ، وقد دللنى المعجبون بها وكانوا يهدون الى الحلوى

كثيرا وفى مقابل ذلك كنت أوافيهم بأخبارها وأودى لهم طلباتهم .
وكنت أحب أن أفعل ذلك لأنى كنت شديد الحب « لدنيا » .

وكان فى جملة محبيها ضباط أيضا فكان يزهيى أن أظهر
معهم فى الطريق وأن يحيينا الجنود ولم أعد أتذكر هؤلاء الضباط
تفصيلا فقد كانوا كثيرا ما يتبدلون ، والراجح أنهم كانوا متشابهي
بعضهم ببعض شسبها قويا اللهم الا واحد علق بذاكرتى وأتبينه
بدقة ، وليس شك فى أنى كنت قد كبرت فى السن بعض الشيء
حين دخل فى حياتنا وكان اسمه بوبسك .

لم يكن بوبسك ينتمى الى حامية ميتاو فالأصح أن فرقته
الحقيقية كانت فى مكان ما من روسيا الصغرى . وكان بوبسك
ملازما أول بالمدفعية ومن أهالى فيتبسك .

كان قد نقل الى ميتاو فكان يغشى القصر كثيرا ، وكان أيضا
فى العادة على صلة بكافة السلطات ومن بينها ادارة السكك
الحديدية ، وعلى هذه الصورة تعرف بأبى ، وأخيرا ادى لنا زيارة .

وكان اذ ذاك ما يزال يسمى بوبسك . ولبشنا نحن أمدا طويلا
ننادية ماتفيج ماتفيجتش . وقد اطلقت عليه أختى اسم بوبسك .
فقد كان من دأبها أن تطلق على الناس الكنايات اذ كانت ذات
طبيعة هوائية .

وبوبسك كان العنوان الروسى الذى أطلق على ابريت سخيفة
ترجمت عن الألمانية . وكانت تعرض فى معظم المدن الكبرى يترنم
بطقاتيقها جميع الناس ويعرفها كل أرغن يدار . واليوم لا يمكن
انسان أن يتصور هذا ، أما اذ ذاك فكانت كالوباء ، وكان أكثر مافيه
ذيوعا أغنية تبدأ : « بوبسك يا قرّة عينى » . وكان اللحن عاديا
لكنه كان يمتاز بأنه « يعشعش » فى الأذن ولا يبارحها ثانية .

كان بطل الاوبريت يسمى « بوبشن » (الدمية) أو بوبسك .
ولست أعلم لماذا ، ولست أعلم أيضا لم تلقى ماتفيج ما تفيجتش
من أختي دنيا هذا الاسم ، وقد علق به ووجد الجميع أنه يصلح
له وعليه يلبسه جيدا ووجدت أنا هذا أيضا

وكان بوبسك أقصر قامة من دنيا بنصف رأس وكان وسيما
وأنيقا نحيل الجسم . واني لأتذكر بجلاء تام عينيه الجميلتين
الوادعتين الحزينتين قليلا ، ولعلهما كانتا أيضا أكثر استغراقا في
الأحلام منهما في الحزن . ولم أكن أيضا اذ ذاك قد بلغت من العمر
ما يجعلني أميز هذا بالضبط .

وكان بوبسك يستطيع أيضا أن يكون طروبيا جدا ، فقد كان
يمارس معنى كافة الألاعيب الممكنة فكان يداخلني أحيانا الشعور
بأنى الأكبر سنا . لكن لا بد أنه كان ذا عقل راجح والا ما كان من
نصيبه هذا النقل ، واني لأفكر الآن أن هذا النقل لا بد أنه كان
راجعا الى شئون تتعلق بالتعبئة والمواصلات .

كان يكثر من زيارتنا وسرعان ما لاحظت انه وقع في حب
« دنيا » وكان يلعب معها التنس ويأتى اليها يحمل الأزهار والحلوى
والعطور الفرنسية .

وقد أسلفت القول أن دنيا كانت هوائية . وكان هذا الملمح
من ملامحها يسيطر أحيانا على دماثة خلقها المطبوعة فيها وكان أيضا
يرجع اليه أن دنيا كانت كثيرا ماتسخر من بوبسك . أجل انها
كثيرا ما كانت تغيظه وكانت تحب أن تحيي فيه آمالا لاتلبث في
اليوم التالى أن تتنصل منها وقد سمعتها مرة تقول : « لا بد لي
يا بوبسك أن أحزنك قليلا لأنك تصبح عندئذ أشد جاذبية » .
ومع هذا كانت على وئام معه ، منذ أول زيارة له . وكانت كذلك
تميزه على غيره من الضباط وعلى صغار الموظفين الذين كانوا

يترددون علينا . ان كل ما قصصته الى الآن يقوم على ملاحظاتي الخاصة ومن الآن فصاعدا لن أجد مندوحة من أن أروى أشياء لا أعلمها الا من تصريحات لاحقة لأمي ، وقد كانت دنيا تكره دائما أن تخاطبني في ذلك

كانت لبوبسك كما يقول الناس « مقاصد جدية » ، وكانت ظروفه موالية للزواج اذ كان أبواي يحبانه وان لم يحب أبي في العادة العسكريين ، فقد كان من الأحرار ، وكان يختلط كثيرا بالألمان واللاتفيين . بينما كانت أمي تقتصر على الاختلاط بالمتدينين ، وكان أبي أيضا لا يذهب الى الكنيسة لكنه يوافق على أن نذهب اليها نحن الآخرين .

وكان بوبسك يتحدث أحيانا عن احتمال وقوع الحرب ، فلم يكن أبي يحب سماع ذلك ، وكان كثيرا ما يقول ان الحروب لم يعد ممكنا أن تنشب في عصرنا ، وان نشبت ففي البلقان على الأكثر ، لكن بوبسك كان أدري بذلك من الضباط الآخرين ، وكان هذا بطبيعة الحال يتصل بعمله العسكري .

كان يتكلم أمام دنيا أيضا عن امكان وقوع حرب ، فلم تكن كأبي تعتقد بهذا ، وكانت ترى أن بوبسك انما يبدى هذا ليبحثها على اتخاذ قرار في شأنهما ، وكانت هي نفسها ميالة الى اتخاذ مثل هذا القرار ، لكنه سرعان ما يسرها أن ترجئه ، فقد كانت أيضا تخشى أن ترجع عما تكون قد قررتة ، وأحيانا كانت تغريه بالمداعبات . وقد سمعت مرة كيف قالت له : « ان مصابي يا بوبسك أنى أحبك . فلو لم يكن هذا لكان كل شيء في منتهى البساطة » .

وقد فقد بوبسك والديه مبكرا جدا ، وتربى في فرقة الطلبة العسكريين . وكان يقضى عطلته دائما في بيت خالة له في فيتبسك ، وكان يذكر هذه الحالة أحيانا . كان يتعلق بها كما يتعلق بأم

ولדתه ، وعلى كل فقد كان فى طبيعته أن يهفو الى من له طبيعة الأم وهكذا تقرب من أول يوم الى أمى وركن اليها ركونا يوائمه جدا كركون الأطفال ، وقد جزته على هذا بعطف من جانبها عظيم ، اذ قالت لأبى فى بداية التعارف تقريبا - ولعل هذا كان فى فصح سنة ١٩١٤ - اذ قالت له « ان ماتفيج ماتفيجتش حبيب الى قلبى، فمثله تقريبا من تمنيت على الدوام زوجا لابنتى » .

وكانت الحالة المقيمة فى فيتبسك أرملة ، اتخذت ربيبة لها صبية فى البيت ، قريبة من بعيد لزوجها ، وكان بوبسك يتحدث أيضا عن هذه الفتاة أحيانا . ويظهر أن شيئا كحكاية حب نشأ بينهما ، لكن بوبسك لم يبادل الربيبة هذا الميل وإن كان قد بقى معها على الدوام على مودة ، وقد حكى لأمى عن ذلك بكل ما يتصف به من حسن النية وكذلك ذكره لدنيا ، لكن لعله لدماثة خلقه وتسامحه طواع هذه الفتاة الى أبعد مما ينبغى ، وهكذا أحبت أن تزعم لنفسها نوعا من الحق ، ولم أستطع أن أتعقب هذه الملاحظات وأتحرأها .

كان بوبسك يحمل خاتما ذهبيا مرصعا بفص أخضر يلفت جماله النظر ، وكان من البرازيل عزيزا على بوبسك جدا ، وقد أهدته اليه خالته المقيمة فى فيتبسك لما رقى الى رتبة الضابط ، لكنه فى الوقت نفسه كانت هناك ملابسة مع الفتاة الربيبة ، ذلك أن الخاتم كان من بين ما خلفه زوج الحالة وكان من قبل يخص جد الفتاة الأكبر فكانت ترى فيه قطعة من الأسرة ، وكانت فيما يظهر ترتب على هذا أن هذه القطعة بانتقالها الى حوزة بوبسك قد أنشأت علاقة بين الأسرتين أرجعتها الى نفسها بحبها لبوبسك .

وذات مرة راهن بوبسك دنيا على لعبة على سبيل المباشطة ، ولم أعد أذكر ماذا كان الداعى اليها ، وطبيعى أن بوبسك أراد أن

يخسر الرهان لتتاح له الفرصة لاهداء شيء الى دنيا ، وكان ينبغي
ألا يلفت هذا القصد النظر وهكذا فكر بوبسك فى أن يرجىء
الشروط التى كانت مفروضة على الطرفين فترة من الزمن . وفى
هذا الأرجاء فاتته اللحظة المناسبة فخسرت دنيا ، فأنهت عليه
باللائمة وقالت انه قصر فى التفاته نحوها ، وقلة شهامة منه أن
يدعها تخسر ، فدعر بوبسك وتكدر ، فضحكت دنيا وحاولت أن
تسرى عنه . وأهدت اليه على أساس اللعبة التى خسرتها منها
مجهزا بشيء يشبه صندوقا عازفا ، فعند الايقاظ تعزف لحن بوبسك:
« أنت قرّة عيني » بدلا من الدق المزعج فى العادة .

وبقيت العلاقة بين بوبسك ودنيا معلقة برهة على هذا النحو
الذى وصفنا ، لكنها وصلت أخيرا الى أن قالت له دنيا : « حسنا
يا بوبسك . اذا وقعت الحرب فأريد عندئذ أن تعلن خطبتنا ، هذا
ما أعدك به . لكنه لا يصح الآن أن تنطلق وتثير من جراء ذلك
الحوادث على الحدود بين فيربالن وايدتكونن » ، فلما نشبت الحرب
بقيت دنيا عند كلمتها ، وأظن أنها كانت ستنجزها ، فقد كان
باديا عليها أن الأمر بات عندها أكثر جدية من ذى قبل . وتلقى
بوبسك أمرا بالتوجه الى لواء المدفعية الميدان شكل حديثا ، فكان
عليه أن يودعنا على عجل ، ولعل ما حداه الى هذه العجلة قد كان
أيضا شعورا صارما كل الصرامة بالواجب أو داعيا كل الدعوة الى
القلق أو بالغ الحماسة ، وأهدى الى دنيا عند الوداع الخاتم المرصع
بالفص الأخضر التورمالين ، وكانت لبوبسك يدان صغيرتان ، ومن
ثم لأم الخاتم أصبح دنيا كما لو كان قيس عليها .

وظل بوبسك هذا المساء الأخير طويلا عندنا ، فأنا نفسى كنت
قبل انصرافه قد أويت الى فراشى

لقد قص على فيما بعد أنه قال لأمى : « اذا لم أرجع فتفضل
بالسفر الى فيتبسك لتعزية خالتى وربيبتها » .

وفى ضحى اليوم التالى ، وكان بوبسك قد رحل بالفعل حضر
الىنا تابعه ، اذ لم يكن رافقه الى كتيبته لأنه ينتمى الى حامية ميتاو،
وكان قد وضع تحت تصرفه مدة قيادته فحسب ، وأحضر المنبه
زاعما أنه لسهو تبينه فى اللحظة الأخيرة لم يضعه فى أمتعته ، وقد
كلفه بأن يسلمه لحفظه ، وكنت قد عدت هذا آنذاك مجرد ذريعة ،
فالراجح أنه أهم بوبسك أن يوصل المنبه الى يدى دنيا ليذكرها
يوميا به ، ووضعت دنيا المنبه على منضدة الليل فى غرفتها ، لكنها
لم تملأه ، وقالت انه لا ينبغي أن يدور ثانية حتى يعود بوبسك .
قالت : « سأجعله بحيث يطلق أغنيته فى اللحظة نفسها التى يدخل
فيها بوبسك البيت » .

واشترك بوبسك فى الزحف على بروسيا الشرقية ، وكان
يكتب كثيرا ، لكن رسائله لم تكن تصل بانتظام ، وأحيانا لا يصل
شئ لأمد طويل ثم اذا برزمة كبيرة من البريد المكس تصل على
حين بغتة مرة واحدة ، ومن ثم ألقت دنيا ألا تقلق كثيرا لتأخر
أخباره .

لكنه فى خلال المرحلة الأخيرة من الخريف انقطعت أخباره ،
وكان الانقطاع هذه المرة أطول من المألوف ، فأخذت دنيا تقلق .

وكنا جالسين جميعا نتناول طعام الافطار فى صباح يوم أحد
رنت بغتة فى حجرة دنيا أغنية : « بوبسك يا قررة عينى » .

فنظر جميعنا بعضنا الى بعض مأخوذين وهبت دنيا واقفة ،
وانطلقت الى الغرفة المجاورة وأوقفت المنبه ، ولما عادت كانت تبدو

شاحبة جدا ، وعادت مجلسها الى المائدة وتناولت جرعة من الشاي وفتتت خبزها ، لكنها لم تأكل منه شيئا .

وجهد أبى فى اجراء الحديث وفجأة أجهشت دنيا بالبكاء قالت : « لقد حلت مصيبة ، لقد وقع مصساب » فجعلت والدتى تهدىء روعها ، وقال أبى فى غضب « هذه سخافات » وسئلت أنا : « هل أدرت المنبه ؟ » فنفيت ثم أسفت على هذا النفسى بعد ذلك ، فقد كان ينبغى أن أقول نعم ، فتهدا دنيا بذلك بالا ، وسئلت كذلك خادمة الغرفة فأجابت بأنها لم تمس المنبه ، وأخيرا فصل أبى فى الأمر بقوله ان دنيا لا بد قد فعلت ذلك وهى شاردة الفكر .

واستولى علينا الغم فى الأيام التالية ، وأبرقت أمى الى فيتبسك تسأل هل من أخبار عن بوبسك ؟ فجاء الرد سلبا . ثم جاء الخبر من كتيبته بأن بوبسك سقط قتيلاً فى اليوم وفى الساعة التى انطلق فيها المنبه واللحن بالذات ، وكتب الياور بعد ذلك أن بوبسك دفن مع بعض رفاقه معا فى مقبرة قرية فى شرق بروسيا ، غير أنه يمكن اذا رغبتا أن نعد الدفن مؤقتا ، وينقل الجثمان الى الوطن ، وقد كتب بهذا المعنى الى الحالة أيضا فى فيتبسك ، وأبدى اليساور هايتخذ لهذا الغرض من اجراءات وتعليمات تتطلب المراجعة ، وموافقات يجب أن تستوفى .

وكانت دنيا المسكينة عاجزة عن اتخاذ أى قرار ، وتبادلت أمى الرسائل والبرقيات مع خالة بوبسك ، وتقرر أن يدفن بوبسك فى فيتبسك ، وأعد لذلك كل شيء ، ولما تلقى أبى الخبر بأن العربة التى تقل النعش أرسلت الى فيتبسك سافر والداى ومعهما دنيا الى هناك ، وبقيت أنا والخادمة وحدنا بالبيت .

واتفق على أن تمكث أمى مع دنيا بعض الوقت فى فيتبسك ، وكان بوبسك قد أبدى رغبته فى أن تقوم أمى بتعزية خالته ورببتها

وكانت هذه الحقيقة رغبة غريبة وخاصة فيما يتعلق بالفتاة ، لكنها كانت تعبر بكل وضوح عن وجدانه كل التعبير .

ولم يسع أبى لأسباب مصلحية أن يتغيب طويلا فى مينا ولذا أراد العودة عقب الدفن مباشرة ، لكن عودته تأخرت .

وفى ذات يوم بعد أن عدت من المدرسة ألفت خادمتنا شديدة الانفعال ، شديدة الخوف ، فقد رن المنبه ثانية بغتة على ما زعمت ، وما كان أبى هذه المرة ليزعم أن أحدا ملأه سهوا أو شارد الفكر ، ذلك أن دنيا أوصدت عليه منضدة الليل قبل سفرها واحتفظت بالمفتاح .

وفى الأيام التالية رنت الاغنية ثلاث مرات أخرى فالمرّة الاولى سمعتها بنفسى ، وكان رنين الصفيح فى الاغنية الدارجة التى لاتنطوى على حرارة وكانت مع ذلك عامرة بمعان متعددة وتعبر عن الهوى والرجاء ، عن الحزن والشكوى ، كان يبدى شيئا مخيفا ، شيئا أخذا فى الوقت نفسه ، ولست أستطيع أن أتصور أغنية موتى أبعث على الذعر منها .

وأخيرا جاء أبى فعلمت منه أن الجنازة لم تشيع بعد ، وأنه لم يتيسر له التخلف أطول من ذلك ، وقد لبثوا فى فيتبسسك ينتظرون وصول النعش على غير جدوى ، وأبرق أبى الذى كان يعرف رقم العربة وتحرى تليفونيا عن مقرها ، فعلم أنها تعطلت سهوا عنه احدى المواصلات وهو ما لم يكن يندر حدوثه فى ذلك العهد من فوضى المواصلات ، ثم ألحقت بقطار آخر . وقد وفق أبى بعبد عناء لا نهاية له أن يقع ثانية على اثر للعربة وجعل يتابع تيهانها عن بعد ، وقد انتهى هذا التيهان الى ميتار ، وظلت العربة ثلاثة

أيام مركونة فوق قضبان السكة الحديد ، قبالة بيتنا حتى أمر أبى وهى فى قوة فيتبسك بأن تتابع سفرها اليها ، والآن وقد رجع أبى كانت العرببة فعلا فى طريقها الى فيتبسك لكن أبى لم يعد يستطيع انتظار وصولها الى هناك .

وقد قصصت عليه أمر رنين الاغنية المتكرر مرات أخرى ، وهو ما حدث بالذات فى تلك الأيام . ولم يشأ أن يسمع من هذا شيئا أما أنا فلم أشك فى أن ثمة علاقة هنا بهذا الرنين ، وما أخذنى على الاكثر قد كان فكرة فعالية تأثير لا بد أن يكون نابعا من تعلق الميت وحبه . وكانت عرببة السكة الحديدية تقل أيضا نعوشا أخرى والى جانبها قطع شحن من كل نوع ، لكن هذا التأثير كان من القوة بحيث استطاع أن يعين للعربة التى كانت ترتبط بها مع ذلك مختلف المساعى والأفكار والامانى وجهتها . وقد أراد أبى أن يرى فى هذا مجرد صدقة تفسرها فوضى المواصلات أثناء الحرب بسهولة ، لكن أمى على خلاف ذلك كانت بعد عودتها ترى رأى ، وقد رأت أيضا فى دوران المنبه حادثا عظيم الأهمية . ولم أرو شيئا من هذا لدنيا ، وكذلك الخادمة أمرت بكتمان الخبر ، أما مجىء العرببة الى ميتاو فلم يخف عن دنيا بلاريب ، لكن لم أحب أن أطرق موضوعه مع دنيا .

وفيما خلا ذلك بقيت أمى ودنيا بعد الدفن فترة أخرى فى فيتبسك . ونشأت بين دنيا والربيبية علاقة صداقة . ولكن لعله لم ينقص هذه العلاقة من جانب الربيبية شيء من الغيرة ربما كان ما يزال خفيا ، وهذا ما أراه الآن ، وربما لأنها ما كانت فيما عدا ذلك لتعرب عن رغبة غير عادية لم تعرب عنها على كل حال شفويا ، بل الاصح أنه بعد عودة دنيا وعودة أمى ببضعة أيام جاء خطاب من الربيبية رجحت فيه دنيا أن تتخلى لها عن الخاتم المرصع بفص التورمالين كتذكار لبوبسك، وكان خطابها يشتمل - كما قالت لى أمى - على

عبارة لم يكن لها تفسير الا أن بوبسك ارتكب حسب رأيها شيئا خاطئا نحوها وعدم الوفاء لها باهدائه الخاتم الذى أهدي اليه ، كذلك قالت لى أمى فيما بعد : انه قد آلم الربيبه كثيرا أن تتجسه عربة السكة الحديدية الى ميتاو بدلا من فيتبسك ، مع أنها كانت تؤكد - المرة تلو المرة - أنها محض الصدفة وأن الأمر لا أهمية له .

وأرت دنيا أمى الخطاب وكانت قد تعجبت من الطلب ، لكنه لم يجرح شعورها ولا سخطها ، ولعله أيضا كان خليقا أن يحدث لفتاة أخرى ، أجل انه بدا أنها لم تكن تكره أن تحقق للربيبه رغبتها ، ويمكننى الآن أن أفسر ذلك بأن دنيا أخجلها أن هذه الفتاة أخلصت لعاطفة وحيدة منذ صباها الباكر بصورة مستقيمة مطلقة ، وهكذا رأت أنها فى الواقع أمام مطلب هى أحق بأن تطالب به لنفسها لكن أمى أشارت عليها بالألا تتعجل فى اصدار قرارها .

وذات مساء فى ذلك العهد كنت جالسا فى غرفتى مكبا على واجب مدرسى كتابى ، وكانت دنيا قد توجهت الى صديقة لها ، وكذلك أبى لم يكن بالمنزل ، فدخلت على أمى قبيل الساعة العاشرة فاذا بها منفعلة جدا ، وأزعم أنى ما أزال الى اليوم أرى كيف كانت شفتاها ترتعشان ، فهببت واقفا ظانا أن حريقا شب فى البيت وأرادت أمى أن تحكم لى شيئا ، لكن الكلمات لم تسعفها ومن ثم دعتنى فحسب الى مرافقتها ، فذهبنا الى حجرة الطعام وأشارت أمى الى احدى النوافذ وسألتنى ان كنت أرى شيئا .

وكان القمر مضيئا لكن ضوءه كان ضعيفا ، فوقع نظرى أولا على الكرة الزجاجية القائمة فى حوض الورد فبدا لى أنها تلمع أكثر وعلى نحو أكثر نورا من المعتاد ، وأذكر أننى قلت لنفسى أنها شبيهة بشمرة فضية لكنى لم ألبث أن عجبت من مكانها ، ذلك أنها لم تكن

فى موضعها المألوف ، بل لعلها بعدت ثمانى خطوات الى اليمين ،
وباتت أدنى الى الأرض مما كانت . لكن سرعان ما اتضح لى أن
هذه ليست بالكرة الزجاجية بل هى شىء أصغر كثيرا خيل الى
بضوئه اللامع أنه ليس امتدادا لها ، ودققت النظر فتبينت أن ذلك
الشىء اللامع انما يكون جزءا من ظاهرة أوسع نطاقا ، وبغته تبينت
شكل رجل يقف هناك بلا حراك ، ويعتمد بيديه على سسيف ،
وصحت : هذا بوبسك .

فهزت أمى رأسها موافقة . وكان الآن قد استردت هدوءها
كاملا .

وقالت : « لعلنا مخدوعين ، ابق هنا وسأعود حالا » ، وكانت
حجرة خادمتنا تقع على الطريقة ، فطرقت أمى بابها وقالت لها أن
تنهض وتوافينا ، وتركنا الباب المفتوح الى الطريقة من قاعة الأكل
مفتوحا .

ولبثت واقفا عند النافذة وفتحتها واقتنعت بأن كل خطأ
مستحيل ، وجاءت أمى الى جانبى وطوقت بذراعها كتفى .

وجاءت الفتاة ترتدى الكفاف من الثياب حافية القدمين فلم
تكد تصل الى النافذة حتى صرخت مرعبة : « هذا بالتأكيد ..
هذا خطيب الأنسة وولت هاربة وسمعناها توصل باب حجرتها
بالمزلاج . ومع أنى كنت خائفا فقد خرجت من حجرة الطعام
وشاهدت أمام « الفيراندة » بوبسك بالوضوح نفسه الذى أحاطه
من النافذة . وكذلك لما جئت فوق الدرج المؤدى من « الفيراندة »
الى الحديقة ، لكنى ما كدت أظأ أرض الحديقة حتى اختفى لناظرى
كل شىء .

وناديت أمى : « هل ما زلت ترين شيئاً ؟ » فأجابت بالايجاب
فعدت اليها أدراجى واستندرت فوق درج « الفيراندة » فرأيت الظاهرة
الواقفة هناك بلا حراك كرة أخرى .

قمنا أنا وأمى بالتجربة عدة مرات ، فكان أن الشبح يبدو مرئياً
لنا من النافذة ومن « الفيراندة » ومن الدرج بكل وضوح ، لكنه اذا
دنا المرء منه اختفى .

وعاد أبى الى البيت فذهبنا لملاقاته فى الردهة وروينا له ما وقع
ورجونا أن يقتنع بنفسه ، فأبى أول الأمر أن يأتى الى النافذة ،
قال ان لأجدر بنا ألا نعرض أنفسنا للسخرية ، لكنه فى النهاية
استجاب لإرادة أمى ونظر من النافذة ، وصرح كارها بأنه يلوح
كأنما هناك رجل واقف يرتدى بذلة ضابط لعله يشبه بوبسك ،
لكن لما كان هذا لا يمكن أن يكون فلا بد أن يكون مرجع ذلك الى
الضوء والى ظل الاشجار أو ما شاكل ذلك ، ثم قال انه لا يزال
عنده ما يؤديه وتوجه الى مكتبه .

وسمعنا عقيب ذلك دنيا قادمة تتجه الى مخدعها فارتأيت أن
تظل جاهلة ما حدث وأن يحظر على الخادمة أن تفتح فإها بكلمة لها
لكن أمى التى كانت تميل فى العادة الى الرأفة بقيت هذه المرة عنيدة
وقالت انه ليس من حقنا أن نفعل ذلك .

وذهبت الى دنيا ولبثت عندها طويلاً ، بينما مضيت أنا فى
تأمل الظاهرة ومحاولة الاقتراب منها عبثاً ، وكنت قرأت بعض
حكايات العفاريت أو سمعتها تروى ، فلفت نظرى الآن جداً ، أنه
على العكس من كل هذه الأقاصيص قد ظل شبح بوبسك لا يتحرك
إطلاقاً وأنه لم يفعل شيئاً ليلفت اليه النظر لكن هذا السكون الصامت
كان أقوى وأفعل بكثير من أى عمل أو افصاح يمكن أن يصدر عنه

وقلت لنفسى لعل يوبسك يعتاقه عائق يكابده ويتمنى أن يتخلص منه ليحدثنا .

وعادت أمى وقالت انها لم يمكنها حمل دنيا على مغادرة حجرتها مع أنها حاولت اقناعها فى الحاح شديد ، وحاولت فى دماثة خلقها أن تلتمس لدنيا العذر ومع ذلك فقد كنا نشعر كلانا أن هذا لم يكن ممكنا بحال .

ولم نتوجه الى النوم الا بعد منتصف الليل ، وكان يوبسك ما يزال واقفا فى الحديقة ، وتناولت أمى مسكنا وأعطتني أيضا منه . ومع ذلك فقد استيقظت بعد بضع ساعات فعاد كل شيء الى خاطرى من جديد ، فنهضت وتوجهت الى حجرة الطعام ، وكان القمر قد غرب ، لكن نور مصباح الطريق كفى لأن يدعنى أتبين الظاهرة بجلاء ، وكانت حيال السيف ما تزال تلتمع ، وقد ظل يوبسك على هذه الحال التى وصفتها أربع ليال متعاقبة فى حديقتنا وفى المساء الثالث شهدته أيضا سيدتان يعرفان أمى جيدا دون أن تعدهما أمى لهذه الرؤية .

كانت هذه الأيام مقبضة جدا . ووددت ألا أعيشها كرة أخرى، وقد تحاشتنا دنيا ، وفى مواعيد الأكل كانت تتسكف مرحا حالفها فيه أبى ، لكن أمى كانت مقرحة العينين من البكاء ، مغتمة الى حد يثير الارتياح .

وفى المساء الثانى أطالت دنيا الجلوس الى البيان وجعلت تعزف مواويل وفالسا وألحانا من الاوبريت ، ومؤكدة أنها لم تعزف هذا عن خفة ، بل لأنها لم تكن تعرف ما تفعل ، وقد حاولت أن أتكلم معها ، لكنها كانت تردنى، وأخيرا أجهشت بالبكاء وصاحت : «أيجب أن تشقونى قسرا؟» وتبدل وجهها الجميل تبديلا تألمت له ، ولم أستطع أن أزيد شيئا . لكنه كان مخيفا لى أن أفكر أن يوبسك كان واقفا

فى الخارج فى تلك الأثناء صامتا لا يتحرك يعتريه شىء ما لا يستطيع أن يصرح به .

وأخيرا جاءت أمى الى وكان ذلك فى بداية الليلة الرابعة ، وكان أبى ودنيا قد أويا الى فراشهما ، وكذلك أنا كنت قد اضطجعت ، لكنى لم أنم بعد ، بل كنت أقرأ قصة لتورجنيف ، فجلست الى أمى على السرير وقالت انها ظلت تفكر ليل نهار ، وان الوسيلة التى اهتمت اليها ، لعلها الوسيلة الناجعة ، انها تريد أن تحاول الآن أن تريح بوبسك ، وانه ينبغى أن أعاونها على ذلك ، فنهضت من فراشى وارتديت ملابسى وخرجنا آنثذ الى حجرة الأكل ، ووقفت أنا عند النافذة المفتوحة ، وأرادت أمى أن تتجه نحو بوبسك فى الحديقة لتكلمه ، وحقا لقد فكرت فى أن تدانيه بقدر مايمكن ، لكنها لم تستطع أن تتبينه بمجرد أن غادرت «الفيранدة» ، وكان على أن أتابع وجهتها وأن أتفاهم معها بالنداء عليها ، وقد رجوتها أن أخرج أنا بدلا منها، لكنها رفضت ورسمت على صدرها علامة الصليب وخرجت الى «الفيранدة» .

ووصفت لى فيما بعد ما قام بنفسها ، فلما هبطت درجات «الفيранدة» ، زال عنها دفعة واحدة كل قلق وزايلها كل شعور بالشقاء ، واطمأنت نفسها كل الطمأنينة وتعزت كل العزاء كأنما كانت على وشك أن تتولى ، فى مركزها الحرج ، الشىء الوحيد النافع المعين لها ، وعجبت فحسب من أن هذا لم يخطر لها من قبل .

ومشت الى بوبسك وهى جد آمنة وان لم تعد تستطيع أن تراه ، ولم أحتج أنا مرة واحدة الى أن أوجهها يمنة أو يسرة أكثر مما كانت تتجه ، بيد أنها أحست فجأة بردا يلم بها ، وشعرت فى الوقت نفسه بأن شيئا كتم أنفاسها ، فى اللحظة نفسها سمعتنى أنادىها ، « الى وراء » . فقد باتت داخله فيه تماما ورأيتها تتراجع عندئذ خطوتين ، ثم وقفت وتكلمت وصحبت كلماتها حركات مطابقة

فى يدها كما كانت عاداتها • كانت تتكلم بالضبط كما لو كانت تتحدث الى رفيق مخلوق على شاكلتها ، فكان صوتها يقع ودودا حارا كما كانت بطبيعتها •

قالت : « اسمع يا بوبسك • لقد كدنا رؤوسنا طويلا فى البحث عن السبب الذى من أجله أتيت الى هنا ، وأعتقد الآن أنى عرفت السبب ، انه يشغل بالك أن تفكر دنيا فى خلع الخاتم من يدها والنزول عنه ، فأنت تحب أن تظل تحمله لكى يكون شىء منك حولها يذكرها بك ، فلتطمئن كل الطمأنينة ، فستحتفظ دنيا بالخاتم وسأتكفل بذلك • هذا وعد منى لك ، لقد أحبتك دنيا وحرزنت عليك ، لكنى أحترم ارادة الله فعد الى راحتك ولا تعد ثانية • »

وألقيت الى الكلمات الاخيرة التى نطقتها أمى بالى أكثر مما ألقته الى الظاهرة ، والآن وقد انتهت من كلامها لاحظت فجأة أنها كانت وحدها ، فقد اختفى الشبح ولم يعد بعدئذ الى الظهور •

جورجيو ومارتينو

« Giorgio und Martino »

اسماء الشخصيات :

Giorgio	جورجيو
Martino	مارتينو
Teresina	تيريسينا
Jacobsen	جاكوبسن
Petersen	بيترسن

أتعرف حكاية جورجيو ومارتينو ؟ لا ؟ لقد ظننت أن أحدا قصها عليك ، فإن الكثيرين من الناس هنا ما يزالون يذكرونها ، وقد وقعت حوادثها قبل أن آتى الى هذه الناحية ، وعلى كل فما أزال أعرف بعض من اشتركوا فى هذه الحوادث .

فى ذلك الحين لما أن بات فى هذه الناحية كيان للفنانين ، كان يوجد فى مورالتو حانة مستحبة جدا ذات طابع شعبى قروى من يوم أن أنشئت ، فلم تكن موائدها تحضر ، وكان النبيذ ما يزال يحتسى فى الاباريق الأثرية ، تلك الجرار الفخارية الجميلة الألوان ذات الفم المدبب ، وفى ذلك العهد لم تكن هذه بعد صناعة فنية بالنسبة للأجانب الذين كانوا يقصدون الى هذه الناحية بلا ريب . لكنهم لم يكونوا أولئك الناس الحقيقيين الذين يقومون بالأسفار وينزلون فى الفنادق وكان الفنانون - وهى كلمة يحسن أن يتحاشاها المرء كثيرا كما هو معروف ، لأنه لم يكن لها ذلك المعنى الواضح المطمئن الذى لكلمات العطارين وموظفى البريد والمحتالين - كان الفنانون اذن ينسجمون مع أوساط الناس من الأهالى ، وكانت الحانة ملكا لزوجين لم أعد أذكر اسم أسرتهما ، ولا مانع من أن أسميهما تاجليا بللى أو فيتوشينى ، لكنه بالاسم الأول كانت الزوجة تسمى ثيريسينا والزوج جورجيو ، ثم أطلق فى النهاية على الحانة اسم جورجيو بالمثل ، ويسأل المرء « أين نحن ؟ » فيجاب : عند جورجيو بالطبع . ومع ذلك فلم يكن هو الذى رفع أسوأ ادارة الى الذروة وأبقاها فى

القمة ، بل كانت الزوجة . كانت تطهو طهوا شهيا ، وتحسن الشراء ، وتراقب الخدم . ونما الأطفال وكانت الحال كما هي فى بعض مزارع الفلاحين حيث تستأثر الزوجة بالادارة جميعا .

وكان جورجيو وسيماء ورجلا مرحا ، ميالا الى الدعابة ، يحب صيد الحيوان والسماك ولعب الورق ، وكان يسهم حقا فى الادارة ، يسهم أحيانا بهمة وحمية ، لكن بدون انتظام ، ومن يحب من العملاء يعامله بالنسيئة ، فكان على زوجه أن تلقى بالها الى ضرورة وفاء الدين ، فاذا ألح عليه أحد أقرضه أيضا نقدا ، وأحيانا كان يقول فى ابتسامة تدعو الى التساهل : « أنت تعلم حال المتزوجين » .

وكان يمكن أن يحل بالحانة البوار لو أن الزوجة لم تكن تتولى فى يدها شئون العمل فى حزم ، لكنه أحيانا ما كانت تقع خلافات وتقع مضايقات ، ولم يكن ضميرها مرتاحا فى هذا كل الراحة ، ذلك أنه كان يقال لها مع ذلك أن الزوجة لا بد أن تخضع للزوج . وقد تعهدت بهذا أمام الهيكل ، لكن الأمور لم تجر بغير ذلك .

وكان من بين من يرتادون الحانة رسام شاب ، لم يكن بلا شك يقيم بالناحية ، بل كان يقيم فى لوزون ، لكنه لما لم يعد يستطيع هناك أن يعامل على الحساب ، فقد اضطر الى الهرب الى مورالتو وقد أراد أن يشبع حقا ، ويترع حقا ، والشقة بين لوزون ومورالتو لم تكن بعيدة جدا ، وقد كان دانيماركيا وكان من ثم يدعى على الأرجح بيتروسن . وطبيعى أنه يمكن أن يكون اسمه جاكويسن بالمثل أو ينسن ، وكان أبوه راعى كنيسة فى مدينة ساحلية صغيرة فى جوتلنده .

وكان جورجيو يحب الرسام ، وهكذا تضخم حسابه ، فأقلق هذا الزوجة وحارت كيف تسترد مالها ، لأن الرسام بطبيعة الحال لم يكن يكسب شيئا مذكورا ، وقد تسامع الناس بأن أسرته ترغب

فى عودته الى الدانيمارك ، وأنها تهدده بقطع مرتبه الشهرى الذى كان مع ذلك ضئيلا .

وكانت الزوجة الى ذلك تميل اليه ، فقد وجدت أنه كان بين العملاء الرسامين جميعا الوحيد الذى أمكن تقدير صورهِ وفهمها ، وانها لتحب أن لو استطاعت مساعدته ، وأخيرا خطر لها خاطر أسعدها ، وإن كان قد داخلها فى هذا الحاطر فى الوقت نفسه شعور بأنها تقدم على عمل جرى ينطوى على الغش . وقد اتحدت فى هذا الحاطر ثلاث أفكار ذات أهمية لها : ان المبلغ الذى يدين به الرسام لن يضيع ، وانه نفسه سيعلن ، وان ضميرها من ناحية زوجها سيرتاح .

ولكى تبدأ بالفكرة الثالثة : كان جورجيو فى الثامنة والأربعين من عمره (وكانت الزوجة أصغر سنا منه) ، وعيد ميلاده المتمم للخمسين قريب . وقد فكرت أن تكرمه بهذه المناسبة الاحتفالية التى تقع بصورة جميلة مع عيد زواجهما الثانى عشر فى وقت واحد فينبغى أن يرى الجميع أنه السيد ، وأنها تكرمه ، كما أمر الله . . . كسيدها ، وأنها تطلب من سائر الناس أن يولوه ما يستحق من تكريم ، وليكن من أمره فيما خلا ذلك ما يكون ، انه يجب أن يتبين كل امرئ فى الوقت نفسه أن جورجيو لم يكن على حق حين استراب ببخلها ، وقد قررت أن ترسم له صورة ، وأن يكون جاكوبسن هو الرسام . وسيتذكر كل ما أبداه جورجيو نحوه من صداقة وصبر فلا يغلو فى ثمن الصورة ، وعلى كل ينبغى أن يجعل الثمن بحيث يخصم منه مبلغ الدين وأن يبقى بعد ذلك للفنان مبلغ ليس بالقليل كل القلة ، ولتبريسنا فكرة بعينها عن أثمان الصور ، ذلك أن الضيوف كثيرا ما كانوا يتحدثون عن ذلك بما فيه الكفاية .

وماذا كان ينبغى أن يرى فى الصورة ؟ لقد كان هذا حاضرا ، صورة لقديس يدعى جورج بطبيعة الحال يطعن من فوق جواده التنين

وهو صريع على الأرض - ويكتب تحت الصورة حانة «سان جورجيو»
لكن الأهم أن يكون للفارس القديس ملامح جورجيو .

هذا كله كان يجب أن يدور وينفذ من وراء جورجيو ، يجب أن يباشر في حينه ، لأن ينسن رجل بطيء في عمله ويمكن نعتيه بالكسل ، لولا أنه كان بالذات فنانا وأنه ليس في كلمة « كسلان » شيء مزر ينطوى على الملام ، لكنه كان معروفا أنه أحيانا ما يحتاج في رسم صورة صغيرة الى فترة طويلة من الزمن ، وقد يحدث أن تصلب جميع قواه الحيوية بشلل يدوم أشهراً وعندئذ يرقد في فراشه فريسة لتفكير أسود ، ويطلق لحيته ، ولا يرد على الرسائل على الأقل ما يرد اليه من جوتلنده ، ولا ينفع الاقناع الودى في رده الى نشاط الواثق بنفسه .

وعصر يوم وقد كان بيترسن رابضاً وحده في حجرة المدير جلست اليه تيريسينا ودعته الى نصف لتر من نبيذ باربيرا أو فالبو ليشيللا ، ولم يكن ينسن معتسداً على هذا منها ، وتجاوزاً أطراف الحديث عن هذا وذاك من الموضوعات ، وتدرجاً كشفت عن خطتها .

وأبدى جاكوبسن الذى لم ينتظر من نفسه الكثير ، اعتراضات من كل نوع . لكنه لما بلغ ما احتسأه من النبيذ ثلاثة الأرباع استولت عليه فكرة أن هذا أول تكليف يكلف به ، وقد يكون بشيراً بازدهار كل شيء موافق له .

وقدمت له تيريسينا دفعتين : واحدة نقداً وأخرى بأن شطبت أمام عينيه جزءاً من مبلغ دينه من الدفتر ، ولا يجوز أن يتصور من هذا الدفتر أكثر من اللازم فقد كان كراسة ابنتها المدرسية التى لم تكتب الى آخرها .

ودعت تيريسينا الرسام بعد ذلك الى مشروبات متنوعة أخرى

وان لم يعد هذا بالشئ الضرورى ، وقد قيدت هذا على أنه اكرام ،
فقد كانت سيدة فاضلة .

وكان بيترسن اذ ذاك مرح النفس ، فلم يمض طويل وقت
حتى كان قد عرض على تيريسينا بعض رسوم تخطيطية بالقلم
الرصاص .

ويعرف الناس النحو الماثور الذى يصور عليه القديس جورج .
فالمحارب القديس يبدو شابا متحمسا ذا فروسية باهرة ، أنيقا فى
جلسته فوق السرج . ويحدث أحيانا أن يشب الجواد عاليا وقد هب
عليه نفس التنين السام البغيض .

لكن الفارس يحفزه على الهجوم ويطعن الوحش الذى يتلوى
تحت قدميه فى صورة كريهة بالحربة فى حنكه أو فى صدره .
وجورجيو لم يعد شابا لكن دون أن يزيغ المرء شيئا يمكن أن يخلع
عليه مع ذلك ملمحا يغلب فيه الصبا وحب العمل والفروسية .

ومفهوم أن الصورة بالنسبة لتيريسينا هبة على سبيل الارضاء
وانها ليست تكريما فحسب لجورجيو بل أيضا له ولجميع معارفه فى
حكم المفاجأة واذن فقد حدث جاكوبسن جورجيو عنها ، لكن بضعة
شبان كانوا يزورونه عرضا رأوا عنده رسوما تخطيطية ومشروعات
مبعثرة هنا وهناك ، وأخيرا لمحوا الصورة المبدوءة أيضا . وفى ساعة
متأخرة بدرت منهم ملاحظات : « سنيور جورجيو آه لو علمت ماذا
ينتظرك .. سنيور جورجيو ، ماذا يسمع الناس عنك ؟ انه ترسم
لك صورة كقديس .. انتبه فستذهب صورتك الى روما ، وسيباركها
البابا المقدس ويبجلها كل الكرادلة » .

ومعقول أن يسأل جورجيو ومعقول أنه لا يلبث أن يعرف
الخبر ،

وقد أحس أن هذا تشريف له ولم ينبس لتبريسينا ببنت شفة لكنه لا يكون جورجيو اذا لم يتدخل بدعابة ، وبغثة ظهر في لوزون ، لأنه من أصحاب الفنادق الذين هم في سعة من الوقت فجعل يطوف مشاهدا ، مستطلعا ، مزهوا • ووعده بينسن بالألا يدع تيريسينا تلاحظ شيئا ، لكنه طلب منه أن يوليه معروفا ويجيبه الى رغبة ، وشطب له في مقابلها بقية دينه •

وما طلبه منه لا يقصد به سسوءا ولا اهانة ، اذ كيف يلحق بزوجته اهانة ما ؟ لكنه مزاح يجب أن يسمح به • وصفوة القول أن على بيترسن أن يخلع على التنين ملامح تيريسينا ، بايحاء بعيد بحيث لا يثير غضبها ، كلا ، ليس هذا وحده هو السبب على التحقيق ، فلا يجوز لغريب أن يفطن الى ذلك ، لكن يجوز للأصدقاء الطيبين والمعارف الطيبين أن يبتسموا ابتسامة صغيرة •

ولم يرق هذا جاكوبسن كثيرا فقد أحس الضيق وهو يفكر في تيريسينا • لكنه في تفكيره في الدعابة وفي سخاء جورجيو وجد أن لاقتراحه جماله ، وقد أكدت له تيريسينا على كل حال شطب المبلغ الذي يدين به ، وقد تم شطب جزء منه لكنه ما كاد يلمح الى هذا محاذرا حتى دس جورجيو يده ضاحكا في جيب سرواله وأخرج ثلاث ورقات من ذات الخمسة الفرنكات ، ومع ذلك فقد ظل ينسن يتردد بضع لحظات وقبل أن يعلن موافقته كان قد تحفظ في نفسه أن يكون في رسم ملامح تيريسينا بين بين ، وذهب بعد ذلك جورجيو معه الى سولدونو ، واقتاده الى حانة هناك وأغدق عليه •

ووافق هذا كله حالة بيترسن المرححة السعيدة ، وبعد أسبوعين ودون أن يكون لهذا سبب تلبد وجه الدنيا له بسحب قاتمة ورقد في فراشه وأطلق لحيته •

كانت مثل هذه الاشياء تقع على البحيرة وكانت تقع فى جوتلنده
أشياء أخرى فقد تولى العم أسرة القسيس من أمد طويل ، وأخيرا قام
ابن عم أكبر سنا من ينسن برحلة الى ايطاليا ، اذ أسر اليه القس
وزوجه ما يحزنهما وناشدها العون ، ذلك أنهما لم يستطعا أن يبلغا
بالرسائل شيئا فوعدهما ابن العم بأن يقوم فى عودته بما ينبغى
وأن يرى ابن القسيس الضال ، فاذا سار كل شيء على ما يرام فانه
يأمل أن يعيده معه من فوره .

وظهر ابن العم على حين بغتة فى لوزون وكان يسمى أيضا
بيترسن اوجاكوبسن أو بينسن . وكان رجلا نشطا فى عالم التجارة ،
وخير الرسام بين أن يلحق به فى رحلة العودة الى جوتلنده وهنا قد
قوض فى أن يسوى ما يمكن أن يكون قد تراكم عليه من ديون ،
ذلك أن قسيسا دانيماركيا لا يصح أن تكون عليه التزامات ، واما
أن يرفض فتحبس عنه المعونة ، وعلى كل فسيذهب معه الى الحلاق .

وترك الرسام كل شيء يجرى فى أعنته حلاقة وسفرا وهو فى
حالته التى جفاها التصميم وجافتها المقاومة وتكفل له ابن العم بحزم
أمتعته وتقرر ألا يتخلف بسبب شيء يمكن أن تهفو اليه فى جوتلنده
نفس الوطنى الذى اقتيد كرسم تخطيطى أو لوحة دراسة . فاذا شاء
فيما بعد أن يتسلى بهذه الاشياء وراقه ذلك فى أيام الآحاد أو بعد
الفراغ من العمل فهذا شأن القسيس وزوجته اللذين تقرر أن يختارا
له مهنة معقولة ويمليها عليه ، أما ابن العم فلم يعد يعنيه من هذا
شيء .

وفى جوتلنده استقبلوا العائد الى الوطن بالترحاب دون أن
يوجهوا اليه لوما ، وقد نال كثيرا من الرعاية وجاء الكثيرون لزيارته
ليسمعوا منه حكاياته عن الجنوب وعن الفن . وقد ألفوه ممتعا ولا بد
أن يكون ممتعا فى مدن جوتلنده الصغرى من زاول الرسم فى الجانب
الآخر من جبال الألب واحتسى الخمر من البرميل رأسا ، وقد

نشطت حيويته وهو يتحدث بذلك وبدا مبتهجا نوعا ما وأقام مرسما في غرفة خالية في بيت القسيس .

وعد أبواه أن الوقت قد حان فبدا يتكلمان عن مستقبله وانتهيا الى تقرير توظيفه في مكتب شركة ملاحه لقريب لهما وأجاب على هذا الاقتراح بأنه مريض فبدا من المناسب عندئذ أن يرجئا هذه الاحاديث الى كرة أخرى . وطبيعى انه لا يريد الضغط عليه ففي الوسع دائما ادخاله الشركة عندما يتمثل للشفاء وليس من طبيعة هذا الأمل أن يعجل بشفائه .

وماذا ينقصه ؟ كان يكابد شتاء شماليا طويلا وبحرا قاتما وهواء رطبا . وكانت نفسه تتوق الى البحيرة وتشتاق الى مرتفعات الكروم ودفء الشمس ، وأصدقائه وكامل أسلوب الحياة الذي اعتاده . كان يشترق البلاد التى ليس فيها مكاتب للملاحه .

وحوالى هذا الوقت اقيمت حفلة خيرية مع « يانصيب » لصالح البعثة . وتبرع بيترسن بصورة لمنظر طبيعى ، ولك أن تفرض أنه كان يرسم صورا صغيرة جميلة ليست فريدة تماما ، فى مرتبة صورى فى الراجح .

وربحت امرأة تاجر ثرى صورة المنظر الطبيعى ورغبت فى نظير لها . . وهكذا تلقى طلبا وأخذ أبواه يبدلان نظرتهما اليه . أجل لقد بات مشهورا وباع من صوره ولم يعد الحديث يتناول شركة الملاحه وان بدا أنه شفى من مرضه وبدا يحلق ذقنه ككل جوتلندى آخر ويتنزه على قدميه ويحتسى مشروب الاكوافيت ويرسم . وكان هذا الرسم ينحصر فى أنه حول طائفة من الرسوم التخطيطية التى جلبها معه الى صور واشتد أثناء هذا العمل حنينه الى نهر تيسين وأخذ أيضا يعمل من جديد فى صورة القديس جورج جاهدا يتخوف ويحرص على ألا يدع ذويه يلحظون ما كان يزاوله من خلط كاثوليكي .

وكان واضحا أن فترة الرخاء المتواضعة لا يمكن أن تستمر طويلا ، ذلك أن دائرة المشتريين في مدينة صغيرة سرعان ما ينضب معينها ، لكنه كان حقا على شيء من الثقة بالنفس والشجاعة ، ولم يعد أيضا معوزا الى المال كل العوز فصمم على الهرب لكنه أرجأه لأن هناك بضعة أشياء أخرى صغيرة كانت ما تزال تنتظر البيع فأراد أن ينتظر حتى تنفذ ، وجعل في تلك الفترة يشتغل بالقديس جورج فتقدم عمله فيه اللهم الا وجه التنين ، فقد لقي فيه المتاعب ، ذلك أن ملامح تيريسينا لم يكن من السهل تأديتها جيدا من الذاكرة لكن هذا سوف يتسارك ولا يزال ثمة متسع من الوقت الى عيد ميلاد جورجيو المتمم للخمسين .

وذاث يسوم كان جاكوبسن كرة أخرى في لوزون وكان قد تغيب عنها أكثر من سنة ، وكانت غرفته القديمة خالية فكان له أن يستأجرها من جديد ولاحظ من فوره كيف بات احترامه في نظر الناس منذ أن كان ابن عمه هنا يسدد عنه الديون وبديهي أنه كان سيعود الى الاستدانة في لوزون وفي غيرها هذا الى أنه أحضر الصورة التي كانت جاهزة تقريبا ، وأجرها يستحق عما قريب . وقد لعن قليلا ما كان منه اذ ذاك من جمود اذ كان عليه أن يتفاهم على عجل مع تيريسينا فان ابن العم كان قد سدد في جملة ما دفع مبلغ الدين المشطوب وبات له بذلك رصيد .

كان ينسن يتصور أنه لا بد سيجد كل شيء كما تركه فهذا ما يعتقده كل الناس في مثل هذه الحالات ، لكن بعضا من أصدقائه ومن معارفه كانوا قد رحلوا واختلف غيرهم ومات أيضا ثلاثة أو أربعة منهم ومن هؤلاء جورجيو أيضا ، وكان هذا في الشتاء بعد وداع بيترسن بوقت غير طويل بينما كان قابعا في جوتلنده يحدق في البحر الاغبر الكدر . وكان جورجيو قد عقد في سكره رهانا أن يعبر البحيرة سباحة على الرغم من فصل الشتاء وكسب الرهان

لكنه أصيب بنزلة برد زيد عليها التهاب رئوى ، ولم يكن البنسلين قد وجد بعد ؛ وباتت تيريسينا أرملة .

وذعر جاكوبسن واستولى عليه اليأس ، لا لأنه خشى على صورته فى الحق فهي لم تعد تصح أن تكون هدية عيد ميلاد على كل حال لكن كتذكار للأرملة والاطفال كان يجب أن تحتفظ بقيمتها ومع ذلك فقد كان يداخله شعور سيئ كما لو كان شيء غدر به وكان يعتمد عليه كل الاعتماد .

وتحدث هو وتيريسينا عن جورجيو فأمرت تيريسينا يدها على عينها وقالت : «يالنا من بشر لا تدرك عقولنا الا بعد الأوان . . لقد كنت أحيانا أستاذ من جورجيو فلم يكن يخطر ببالي أنه بمرحه وحبه للعشرة قد جذب إلينا أناسا كثيرين أصبحوا عملاء للمحل . »

وقال بيترسن : « أجل لقد كان رجلا طيبا فلم يكن بد من أن يحبه الجميع فلنشرب نخب ذكراه . »

وقالت تيريسينا : « جميل منك أنك عدت يا سيد جاكوبسن . انك حقا قطعة من العهد القديم ، والآن قد تغير الشيء الكثير وسوف يتغير أكثر منه فيجب اذن أن أحكى لك على الفور ، لقد استخدمت نادلا ، رجلا حاذقا تعلم فى لوجانو ، وكان أخيرا فى مندريسيو يعمل فى محل حلوانى ، ان نوبته فى الخروج اليوم لكنك ستتعرف به غدا وهو يسمى مارتينو . أجل ، وسوف نتزوج ، فان الحياة تشق على امرأة وحيدة ، وهو أيضا يجلب معه شيئا ادخره ففى مكنته أن يودعه فى التجارة . »

فهناها ينسن ولكن فى غير ما غبطة كثيرة فليس مما يحب الرجل أن تتزوج النساء .

وقالت تيريسينا : « أجل والآن لنطرق موضوع الصورة ياسيد

بيترسن . يجب أن أحملك مزيدا من التعب ، لكنى أعلم أنك تفعل
هكذا عن طيب خاطر ، وهو أيضا مفيد لك ، أنت يا من له هذه
المهارة . . اذن فالصورة وعليها القديس جورج لم يعد لها قيمة
وانظر فلا يزال الى أوان العرس عدة أسابيع أخرى فيجب اذن أن
تحول الصورة ، ويجب أن يكون تحتها : «حانة القديس مارتينو» .

قال جاكوبسن وقد ذعر بعض الشيء : « أحولها ؟ من جورج
الى مارتينو ؟ والتنين الى المتسول ؟ »

فنفضت تيريسينا رأسها مغتبطة . ودعته كما فعلت ذات مرة
الى قدح من مشروب برييرا أو فالينوليتشيلا ، وتحدثت عن مهارته
وبذلت له الوعود .

وأخيرا بدأ ينسن يضحك ، فقد طاب له العيش فى جوتلنדה
وسمنوه .

« لم لا ، بالتأكيد . مادمت لاتطلبين منى أن أجعل من القديس
جورج العذراء تحمل طفلها ومن التنين يوسف ، ومن جواد الفارس
حمارا تركبه الى مصر » .

وكان مما يخفف عنه أنه لم يعد بحاجة الى تهريب ملامح
تيريسينا الى وجه التنين . وقد شعر حقا كيف كان هذا الالتزام
الذى أخذه على نفسه بهذا الطرب مفعما بالمضايقات .

طبيعى أن يكون للقديس جورج ملامح مارتينو ولدرس هذه
اللامح يجب أن يكثر باترسن من الإقامة فى الحانة .

وطبيعى ألا تستطيع تيريسينا أن تطلب منه أن يتحمل نفقات
هذه الإقامة بغية الدرس ، وقد كانت كثيرا ما تدس له النقود ، وهى
تخطف عبرة ، فليس يجوز أن يلحظ مارتينو ذلك .

وقد كانت تراعى جاكوبسن لأنها يجب أن تستبقه في حالة نفسية طيبة ونشاط للعمل . ولا يصح كما أكد كثيرا أن يتهاون المرء في واجبه . وقد كان الامر في الراجح أبسط عنده لو أنه رسم صورة جديدة لكن الوقت والحالة هذه يقصر ويحتاج الامر الى اعتبارات وتصميمات جديدة ومن يعلم فربما لا تهبط على بيترسن فجأة تلك السحب القاتمة .

وقد أرادت تيريسينا أن تقنع نفسها بتقديم العمل لكنها مراعاة للناس لم يكن يسعها أن تزور بنسن في مسكنه . ولم يكن يكفيها ما يوافيها به أحيانا من رسوم تخطيطية مرسومة بالرصاص بل كانت تصر على أن يريها بين الحين والحين لقطة شمسية لما أنجز وقد رأيت بنفسى آخر لقطة تمثل بالفعل الصورة الجاهزة . ومن الامضاء لم أستطع أن أتبين سوى المقطع الاخير « سن » .

ولما خرج العروسان من الكنيسة كانت الصورة قائمة يحتويها اطار واكليل فوق مائدة في الحانة مفروشة بقماش أبيض فتزاحم الضيوف عليها وهم يهتفون بشتى التهتافات ، لكن تيريسينا أخذت مارتينو من يده واقتادته كالطفل وأمسكت باليد الاخرى بيترسن وتعلق بهم الاطفال وهكذا ألف الكل جماعة لطيفة .

ولم يلحظ على الصورة ما تكلفته من عناء شديد لا مارتينو ولا الضيوف ، وكذلك تيريسينا باعتقادها الساذج بأن الرسامين لا بد أن يستطيعوا الرسم - لم تتصور شيئا من ذلك العناء ، وكان في رأيها أن جاكوبسن غلا في ذكر الصعوبات ، تارة لتراخيه وتارة عن حساب ومع ذلك لم تفكر في أن تاخذ عليه هذا الحساب ، ذلك أننا لا بد أن نكون جميعا تجارا ، كل على طريقته ، لكنه معروف - مافي ذلك شأن - أن رسامي القديسين لا يصنعون ما يجول بخاطرهم لأول وهلة بل أن عليهم أن يلتزموا القواعد والمأثور ، والقواعد في

حالة القديس جورج تختلف عنها في حالة القديس مارتن ، ولما لم يكن هذا حين شق الرداء نصفين ، أسقفا بعد ، بل كان فارسا صغيرا ، وهو ليس فيما يفترض أقل فروسية من القديس جورج ، فقد أضفى عليه الناس مرة شيئا من الكهانة وشيئا من الصبغة المدنية بالتأكيد ، ومن ثم بات بغض النظر عن سائر صفاته الاخرى راعيا لحياطي الأردية وتجار الأقمشة ، وعلى خلاف فرس جورج المحارب يرسم حصان مارتن واقفا أو متحركا على كل حال في خطوة محترزة . وهنا لم يكن بالشئ الهين أن تنقل الحيوان الشرس الى أودع المواقف جميعا فوق ما يتولى المرء من قلق على المستجدي الراكع الذي اتخذ مكان التنين أن يصيبه أذى .

أجل ، فقد جعل من التنين متسولا ومن رأس الوحش يدا ممدودة ، تتوسل ومن الحربة سيفا ومن الطعنة النافذة القطعة القاسمة بعناية . لكن أصعب ما هنالك قد كان تحويل جورجيو الى مارتينو وتحويل الراعي المرح للخيالة والفرسان وانقرويين الذين يسوسون الخيل الى نادل من مندريويو يمكن على كل حال أن يحمل على امتطاء حصان خشبي في دواراة الأراجيج . كلا ان هذا حقا لم يكن بشخص الخيال والفارس المشبه جورجيو بل كان رجلا ربعة أو يكاد ، بديننا بعض الشئ قصير الساقين بعض الشئ ، ضيق الصدر بعض الشئ كذلك ، لكن هذا مالا يراه المرء في الصور ، وكان على بينسن أن يكور له بطنه ويقصر ساقيه بحيث تبدو منتفخة جميعا .

كان هذا كله جديرا بالاعجاب وخاصة بعد الذي ذاع من حديث عن حكاية نشأة الصورة ، لكن أبهج ما فاز بالاعجاب قد كان حقا ما خطر لبترسن من أن يرسم نفسه أيضا . فقد خلع آلاف ملامحه على المتسول الذي يمد يده الى الرداء كما خلع من قبل ملامح تيريسينا على التنين ، ضاحكا تارة من نفسه ومن حيلاته الفاشلة التي لا تستغني كل الاستغناء عن الجزاء مفكرا تارة في أنه الآن بعد

أن انقطع مرتبه الشهرى من جوتلنده يعتمد على رضى مارتينو .
ولعل أحدا سوى تيريسينا لم يلحظ الزمة الصغيرة المتهكمة للشفتين
وتقويسة زاوية الفم ، وماذا بقى لمارتينو ؟ ولما صخببت الحفلة
وتولاها مزيد من الابتهاج هز مارتينو يد بنسن للمرة السادسة
وأسر اليه فى ابتسامة أليمة أنه لن يدع راعيه الذى يحمل اسمه
يظنه صعلوكا فهنا شئ يستطيع جاكوبسن أن يشتري له منه رداء
كاملا .

ودس له بهذه الكلمات حفنة من ورق النقد فى جيب الصدر .
وسكر بيترسن بعد ذلك فحكى لتيريسينا عن الملامح التى
كان يراد أن يحملها وجهه التين حسب مشيئة جورجيو فبكت
تيريسينا .

« انظر أى خاطر أملتة الدعابة عليه ؟ ألم يكن غير زوجى
جورجيو من يخطر له هذا ؟ وما كان مارتينو قط ليجد لهذا داعيا
قط . »

ربما كان هذا شعورها غير مرة . وحقا انه لم يكن لديها
ما تشكو منه ، وحقا ان لمارتينو محاسنه وفيه كل ما افتقدته فى
جورجيو ، بيد أن شيئا واحد ينقصه ، سحر من يمكن اغواؤه
بسهولة انها لا تندم قط على أنها أوصت على رسم الصورة وان كان
هذا الرسم فى مجموعه قد تكلف كثيرا .

وذهب مع الايام بعض الاصدقاء فعاد جاكوبسن مرة أخرى
والى الأبد الى جوتلنده وسر مارتينو وتيريسينا أنهما استطاعا بيع
الحانة بثمان طيب الى حد ما ، بعد أن ألم بها الكساد . وقد حل محلها
الآن فندق كبير .

ما كانت هذه الحكاية لتستحق أن تحكى اذا لم يكن فيها شئ

يتناول الناس كافة • وهذا على الاطلاق ما تتميز به الحكاية الحقيقية، وليس يجب أن تكون الحكاية دائما جلية ، فحسب المرء أن يتأثرها، وأيضا في هذه الحكاية قد تعقبت مضمونها بادية ذى بدء ثم أدت في رأسى بعض الافكار وأعتقد الآن أنى تابعتها •

أعرف ما هذا ؟ تحويل جورج الى مارتن •

ان ما يستأهل على التحقيق هو أن يقتل تنين •

وهذا يفعله المرء وهو شاب ويوليه سرورا • ولا يهم المرء كثيرا جدا أن يكون التنين عندئذ شريرا حقا ، ممعنا فى الشر ، ومؤذيا حقا ممعنا فى الأذى • وصيد التنين كما تعلم رياضة نبيلة • ومتى كبر المرء يرى أنه أليق بالقديس الفارس فى النهاية أن يشق رداء بسيفه نصفين ليعين شحاذا يرتعد فى البرد على الشمس الدفء •

واعتقد أن السيف أيضا يكون له هنا أكبر الشرف – شرف أعظم مما للحربة التى يطعن بها بطن تنين تعس •

منتدى سورا الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
بناء البرج	٩
صورة الكرنفال	٢١
شقفة الطائر	٤٣
اللعبة الملكية	٥٩
عرس الدب	٧٣
اللحظة	٨٩
التوأمان الفرنسيان	٩٩
طبيب الرمل	١٢٥
الخيال القديم	١٤١
الشريط الحريري	١٥٧
بوبسك	١٩٣
جورجيو ومارتينو	٢١١

الطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٦٨ / ١٩٧١

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسى ١١١٧ شارع كورنيش النيل - القاهرة - ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٨ / ٧١٠٥٥ تليفاكس : بانثرو
الإدارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع نصر النيل - القاهرة - ج.ع.م.
تليفون : ٤٧٤٣٦ / ٤٥٥٨٩
مكتبات القومية للتوزيع في ج . ع . م .

القاهرة

٣٦ شارع شريف ت : ٤٠٠١٢ ١٩ شارع ٢٦ يوليو ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عراقى ت : ٤٦٣٨٣ ٢٢ شارع الجمهورية ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المتدين ت : ٢١١٨٧ الباب الأخضر بالحسين ت : ٩١٣٤٤٧
الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥ الجيزة : ١ ميدان الحيزة ت : ٨٩٨٣٦١
دمههور : شارع عبدالسلام الشاذل ٢٦٠٥ المنيا : شارع ابن خضيب ت : ٤٤٥٤
طنطا : ميدان الساعة ٢٥٩٤ اسيوط : شارع الجمهورية ت : ٢٠٣٢
المنصورة : ميدان المحطة ٤٢٧٧ اسوان : السوق السياحى ت : ٢٩٣٠
المنصورة : أول شارع الثورة ٣٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م .

لبنان : الشركة القومية للتوزيع - بيروت - شارع سوريا بناية أبناء صمدى ومالحة
العراق : الشركة القومية للتوزيع - بغداد - ميدان التحرير - عمارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م .

الكويت : وكالة المجلات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الأردن : مكتبة المحتسب - عمان
ليبيا : محمود عارف الشهيدى - طرابلس
اندونيسيا : س.د.د. محمد العياوش - جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج - تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ - ٤٤ الشارع الملكى - الاحباس -
الدار البيضاء

بولندا : مكتبة بريل - ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
في خدمة القارئ العربي

صدر أخيراً عن:

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

أشواق بوذا

شعر: أحمد مخيمر

الثمن ٥٥ قرشا

صياد الوهم

شعر: كمال عمار

الثمن ٢٠ قرشا

تطلب من مكتبات القومية للتوزيع بفروعها المختلفة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

Bibliotheca Alexandrina



0405083